الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 8 ماي 1945 – قالمة

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم التاريخ

صراع الحضارات في العالم القديم

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر التاريخ العام

إعداد الطالب:

- هميسي عصام

إشراف الأستاذ :

مرزوقي بلقاسم

تشكيل لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة
سعيدي سليم	أستاذ مساعد – أ–	رئيس اللجنة	8 ماي 1945
مرزوقي بلقاسم	أستاذ مساعد – أ–	مشرف ومقرر	8 ماي 1945
خياط يوسف	أستاذ مساعد – أ–	عضو مناقش	8 ماي 1945

2017-2016

شكر

أشكر الله العلي القدير وأحمده حمدا كثيرا الذي أمدني بالقوة والعزيمة لإنجاز هذا العمل المتواضع ، ثم الشكر والتقدير لأستاذي المشرف الدكتور بلقاسم مرزوقي .

الذي لم يبخل عليَّ يوما بتوجيهاته ونصائحه القيمة ، وصبره علي ، ومساندته لي من أجل إتمام هذا العمل الذي سطره من بدايته إلى آخر نقطة وضعت فيه رغم انشغالاته الكثيرة ، فكل الشكر لك أستاذي .

وأجد لزاما علي هنا أيضا توجيه عظيم الشكر للجنة المناقشة لتفضلها بقبول مناقشة هذا العمل المتواضع .

كما أشكر أساتذة وموظفي قسم التاريخ ، بالإضافة إلى عمال المكتبة الجامعية ، كما أوجه شكري إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا البحث

الإهداء

إلى التي سهرت من أجل إسعادي ، وتعذبت من أجل راحتي ، وضحت بالغالي من أجل تعليمي ، إلى التي لولاها لما كنت لأكون ، إلى سر وجودي وأصل كياني ، إلى رمز الحب والحنان ، إلى أجمل وأروع ما في الكون إلى حبيبة قلبي أمي الغالية .

إلى من هيأ لي طريق المستقبل ، وساعدني من أجل مواصلة المشوار وكان له الفضل في نجاحي أبي العزيز .

إلى من علموني معنى الصبر ، واحترقوا من أجل إنارة دربي ، إلى من تتأجج بداخلهم انتظار زهرة عملي هذا أن تثمر إخوتي وأخواتي ، إلى كل من يعرفني من قريب أو بعيد ، إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع .

هميسي عصام

بمرور الزمن كان عقل الإنسان يتطور بيولوجيا واجتماعيا ، ووصل الأمر به إلى مرحلة الإدراك والوعي بوجوده وحاجته للآخرين ، وكان أول مظهر من مظاهر التفكير الإنساني تفكيرا اجتماعيا ، وبتعقد الحياة وتطورها وحاجة الإنسان إلى أساليب متطورة من التفكير لحل مشكلاته ، كان العقل الإنساني يتفاعل مع كل مرحلة ويستوعب متطلباتها وكان طبيعيا أن يتأثر العقل الإنساني بالبيئة ومتطلباتها الاجتماعية ويؤثر فيها ، ليحقق من خلالها ارقي الحضارات ، و هناك اتفاق عام على أن فهم الماضي فهماً موضوعياً نقدياً يسهل معرفة الحاضر والتخطيط للمستقبل، وهذا هو الهدف رئيسي من أهداف هذه الدراسة التي تُحاول تقديم قراءة موضوعية- قدر الإمكان- لأِولى الحضارات البشرية الناضجة التي تكونت في العالم القديم ، من خلال غربلة مختلف المصادر التي أُتيحت لها للتعرف على تلك الحضارة التي بناها الأسلاف وأخذت تشرق نورها منذ حوالي 3000 ق.م، وهي لا زالت تعيش معنا، بهذا القدر أو ذاك، في أفكارنا ومعتقداتنا وممارساتنا، ويرتبط بهذا الهدف المساهمة في التوعية الثقافية وبناء وعي موضوعي باتجاه نقد الذات، وهي التي بنت أول مجتمع سياسي بِأنظمته وقوانينه، وعلَّمت البشرية القراءة والكتابة؟ وكيف نشأت هذه الحضارات وماتت، ولماذا؟ في حين شكلت جذور حضارات عصرية؟ ومَنْ هم الذين أسسوا هذه الحضارات التي استمرت في أفكارها ومعتقداتها وإنجازاتها في مختلف المراحل التالية ، كما يعد الصراع ظاهرة اجتماعية موغلة في القدم ، حيث ير ى البعض أنها سمة ملازمة للمجتمعات البشرية ، ولا يمكن تصور وجود جماعة بشرية دون وجود صراع ، فظاهرة الصراع ظاهرة قديمة في التاريخ الإنساني ، وهي ملازمة له ، لذلك فإن الصراع هو احد أنماط التفاعل الاجتماعي الذي ينشأ عن تعارض المصالح ، وهو موقف تنافسي يدرك فيه كل من المتنافسين أنه لا سبيل إلى التوفيق بين مصالحه ومصالح الطرف الآخر ، فتنقلب المنافسة إلى صراع يعمل فيه كل طرف على تحطيم مصالح غريمه ، ويأخذ الصراع شكل الهجوم والدفاع عندما يتعلق الأمر بالصراع الاجتماعي الذي يهدف إلى الفوز على الأفراد أو الجماعات المعارضة ، أو الإضرار بها أو بممتلكاتها أو بثقافتها أو بأي شيء يتعلق بها، فهذا التلازم التاريخي بين ظاهرة الصراع والمجتمعات البشرية ، يجعلنا ندرك بأن تلك المجتمعات لا يمكن النظر إليها بمعزل عن ظاهرة الصراع ، خاصة عندما يتعلق الأمر بتغيرها وتطورها ، والاهتمام بموضوع الصراع ومكانته بالنسبة للجماعة إنما يتعلق بالدور الذي يلعبه

الصراع بعملية التغير الاجتماعي ، لذلك فقد اختلف العلماء في تفسيرهم لهذه الظاهرة ، فذهب بعضهم إلى أن وجود الصراع داخل الجماعة إنما يعبر عن حالة مرضيّة يجب السيطرة والقضاء عليها ، في حين ير ى البعض بأن الصراع يمثل حالة إيجابية لابد من وجودها في المجتمعات البشرية ، من أجل التنمية والتقدم والتطور، ويمثل الصراع كافة حالات التناقض بين مجموعتين من الأطراف ، ويمكن لهذا التناقض أن يشمل أية من حالات التضاد التي تندرج في إطار النزاع والتنافس والتنافر والتناحر والاختلاف والتمايز، في وجهات النظر والآراء والمواقف ، ويعني هذا حتى مواقف التعبير عن عدم الرضاء والامتعاض وسوء التفاهم ، وقد تتطور إلى أن تشمل حالات الاقتتال والعنف بأشكاله المتعددة.

إن للفرد كما للجماعة حاجات لابد من إشباعها ، إلا أن ذلك يتعلق بمدى توفر هذه الحاجات من جهة ، ومن جهة أخرى مدى إمكانية القيام بذلك من الناحية المادية ومن الناحية القيمية ، لذا فإن فكرة الصراع تتمحور حول رغبة الأفراد والجماعات في إشباع حاجاتهم تلك ، ووجود الموانع التي تقف حائلاً دون حدوث ذلك ، فتنشأ الرغبة في التخلص من تلك القيود للوصول إلى الأهداف ، وبذلك يتم الصراع على مستويين ، كما ذهب إلى ذلك " أرسطو " ، عندما أشار إلى أن الصراع قد ينشأ على مستوى الأفراد ، ويكون مصدر ذلك الكفاح من أجل إشباع الحاجات الأساسية للفرد ، أما المستوى الثاني فهو مستو ى الجماعات ،و يمثله الصراع بين الطبقات ، والذي يكون مصدره هو عدم المساواة في الحقوق السياسية والثروة ، وذلك ما ينطبق برأيه على حركة التاريخ الإنساني .

ويعتبر موضوع صراع الحضارات في العا لم القديم من بين المواضيع التي لم تتضح معا لم دراستها بعد بصورة دقيقة ، ذلك ما استوجب على الدارسين للتاريخ الحضاري القديم البذل المزيد من الجهود للقيام ببحوث جادة ، بغية توحيد وجهات النظر والرؤى ، من أجل رفع اللبس وإلقاء الضوء على جوانب مهمة من التاريخ القديم .

ومن هذا المنطلق ، فإن اتخذ صراع الحضارات في العالم القديم كنموذج للبحث التاريخي جدير بأن يكون موضوعا هاما للتأكيد على أن هذه الشعوب توجد بينها روابط عدة من أحوال سياسية وأفكار دينية ومحاولة تقريب صور حضارة هذه الشعوب وصفاتها المشتركة المميزة .

وهذا ما جعلنا نأخذ بهذا البحث وجهة سياسية دينية ، باعتبار أن معظم المصادر والوثائق المتصلة مرتبطة بالأحداث السياسية الدينية أكثر من ارتباطها بالجوانب الاقتصادية الاجتماعية ، لذلك ارتأينا أن نبرز التموقع الجغرافي لهذه لهذه الحضارات والإشارة لبعض الجوانب من طابعها الحضاري على طول الفترة الممتدة لتاريخها .

ونظرا لطبيعة الموضوع والأفكار الأساسية التي يتضمنها ، فإننا قسمنا عملنا هذا إلى ثلاث فصول شملت عناوين فرعية حاولنا من خلالها تغطية الموضوع من جميع جوانبه وفقا للخطة التالية :

لقد أبرزت في الفصل التمهيدي دراسة شاملة لمصطلح الحضارة ووضحنا المعنى الحقيقي لهذا المفهوم من خلال إبراز المعنى عند كلا من العرب والغرب .

أما الفصل الأول ، والمدرج تحت عنوان صراع الحضارات في الشرق القديم ارتأينا أن نشير فيه لتعريف بالحضارة الممتدة على محيط الشرق القديم من خلال دراسة معالم هذه الحضارات واقتصارنا على تناول الحضارة المصرية وحضارة بلاد الرافدين دون التطرق لباقي الحضارات وهذا رغبة منا لتحقيق التوازن بين بقية الفصول ، ثم أشرنا للصراع السياسي الذي تجلى في توضيح كيفية معالجة كلتا الحضارتين وتسيير أمورها السياسية الداخلية والخارجية ، لننتهي بالذكر الصراع الديني الذي كان يمثل الجانب الروحي لهذه الحضارات إلى أزمة تهدد الأمن الداخلي لها .

أما الفصل الثاني فقد أبرزت فيه هو كذلك الصراع الحضاري في شمال إفريقيا ، وذلك من خلال تناول طريقة قيام الحضارة القرطاجية وتوسعها على في شمال إفريقيا وتعريج بالذكر للحضارة الليبية البونيقية التي كانت مزيج بين حضارة سكان المنطقة وشعوب بلاد قرطاج ، ثم استعرضنا طريقة الصراع الديني والسياسي الذي ميز المنطقة خلال قيام كلتا هاتين الحضارتين .

في حين تطرقنا في الفصل الثالث والأخير إلى الصراع الحضاري في أوروبا من خلال إسقاط لمحة عن الحضارتين اليونانية والرومانية ، وطريقة تنامي الصراع السياسي للحضارتين ، وفي أخر الفصل تكلمنا عن الصراع الديني الفكر الفلسفي الذي ميز الحضارة اليونانية ، مع توضيح صراع والتحول الديني لدى الشعوب واعتناقها للمسيحية .

كما زودنا البحث بعدة من الخرائط والصور التوضيحية التي رأينا أنها ضرورية لتدعيم الموضوع بمختلف عناصره .

تجدر الملاحظة إلا أن طبيعة الموضوع تتطلب التركيز على الجانبين التاريخي والأثري للوصول إلى النتائج المتوخاة خاصة وأنه يتناول فترة زمنية طويلة استوجب دراستها والبحث فيها الرجوع إلى مصادر التي تناولت الموضوع ، والمعروف عنها أنها نادرة ولم تشر إلى الصراع الحضاري إلا عرضيا .

والجدير بالملاحظة حول بعض المصادر ، هو أن بعض الأحداث تم استقاؤها من مصدر واحد ، وقد لا حظنا في تلك المصادر عدم الدقة في سرد الأحداث ومجانيتها للالتزام بالموضوعية ، مما صعب علينا تأويل وتفسير الأحداث التي أوردتها ، غير أننا استفدنا من الدراسات الحديثة التي تناولت الموضوع سواء فيما يتعلق منها بالجانب التاريخي أو الأثري أو حتى التاريخي الاجتماعي نذكر من ذلك على وجه الخصوص : عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ، ابن منظور وسيريل ألدريد .

هذا بالإضافة إلى الدراسات والمؤلفات التي كتبت باللغة الوطنية لبلدان مواقع الحضارات نشير فيها على الخصوص إلي :

– مؤلفات حسين سليم ، مصر القديمة (عصر منبتاح ورعمسيس الثالث ولمحة في تاريخ لوبية) .

- مؤلفات تقي الدين الدباغ ، العراق في التاريخ " العراق في عصور ما قبل التاريخ ".

هذا بالإضافة إلي مجموعة من الدراسات التي نشرت في الكثير من الحوليات نذكر منها :

– سامي سعيد الأحمد ، العراق في كتابات اليونان والرومان ، مجلة سومر سنة 1970.

– علوي طه الصافي ، تعريف الثقافة ومفهومها ، مجلة فيصل 1988.

ورغم ما شاب بعض المصادر و المراجع من انحياز مؤلفيها إلى شعوبهم إلا أننا اعتمدنا عليها واستفدنا منها وذلك بالوصول إلى نتائج هامة نذكر منها :

* معرفة الإطار الزمكاني لبعض الحضارات وتاريخ تأسيها .

* معرفة حدود التوسع المكاني ، مع توضيح جوانب العسكرية لتلك الحضارات .

* معرفة ما قدمته هذه الحضارات إلى معارف وعلوم لشعوب اللاحقة .

* العلاقة الجدلية قائمة بين تلك الشعوب في المناطق الداخلية .

وقد اعتمدنا في ذلك على منهج تحليلي استنباطي للوصول إلى إجابات وافية على التؤلات المطروحة والتي أشرنا إليها سابقا .

وتجدر الإشارة إلى أنه واجهتنا عد صعوبات في انجاز هذا البحث ، حيث أن موضوعه استدعى وقتا طويلا وجهدا مضنيا ، خاصة أنه يتناول فترة زمنية طويلة والعديد من الحضارات في ظل ندرة المصادر التي تطرقت إلى الموضوع أو صعوبة الحصول عليها .

وفي نهاية هذا البحث أود أن أتوجه بالشكر الجزيل ، والعرفان والامتنان إلى كل من ساهم في مراحل إنجاز هذا البحث ، فله منا كل الاحترام والتقدير كما نتوجه بخالص الشكر إلى كل الذين أمدونا بيد المساعدة من أساتذة وزملاء ،وعمال المكتبات ، خاصة مكتبة كلية سويداني بوجمعة – جامعة 08 ماي 1945.

والله الموفق.

خطة البحث

مقدمة

الفصل التمهيدي : دراسة مفاهيمية لمصطلح الحضارة

المبحث الأول : في مفهوم الحضارة عند العرب

المبحث الثاني : في مفهوم الحضارة عند الغرب

الفصل الأول : صراع الحضارات في الشرق القديم

المبحث الأول : بلاد النيل الفرعونية

المبحث الثاني : بلاد ما بين النهرين

المبحث الثالث : الصراع السياسي

المبحث الرابع : الصراع الديني

الفصل الثاني : صراع الحضارات في شمال إفريقيا

المبحث الأول : لمحة عن الحضارة القرطاجية

المبحث الثاني : لمحة عن الحضارة الليبية البونية (حمون بعل)

المبحث الثالث : الصراع السياسي

المبحث الرابع : الصراع الديني

الفصل الثالث : صراع الحضارات في شمال البحر المتوسط

المبحث الأول : لمحة عن الحضارة اليونانية

المبحث الثاني : لمحة عن الحضارة الرومانية

المبحث الثالث : الصراع السياسي

المبحث الرابع : الصراع الديني.

خاتمة

الملاحق

البيبلوغرافيا

الفهارس

المبحث الأول : في مفهوم الحضارة عند العرب .

تعتبر كلمة حضارة من الألفاظ اللغوية الأكثر شيوعا في الاستعمال لدى الكتاب والمفكرين في عصرنا ، غير أن هناك غموضا يكتنف مدلولها ولعلَّ ذلك يرجع إلى الخلفية الفكرية والتكوين العلمي والزاد المعرفي لدى هؤلاء الكتّاب ، مما أدى إلى عدم الاتفاق على معنى محدد لها[1].

كما أن " مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم التي أخضعت لعملية متواصلة من التلبيس والتشويه وطمس الدلالات ، بصورة أدت إلى تحويل المفهوم إلى صفة ذات أبعاد قيمية تفتقد الماهية والمصادقات" [2].

لذا ، فإن محاولة مناقشة هذا المفهوم مناقشة تأصيلية تستقصي جذوره وتتبع دلالته تحتاج إلى بحث مستقل ، وعلية ارتأيت ضرورة الوقوف عند الأصل اللغوي لكلمة الحضارة ، والاقتصار على نماذج بارزة في الاستعمال الاصطلاحي للكلمة على الصعيدين العربي والغربي بالقدر الذي يسمح لنا بتحديد المصطلح وجعله واضحا وقابلا للتعامل معه في إطار البحث الذي نسعى إليه[3].

و جاء في لسان العرب في مادة " حضر " : الحُضُورُ : نقيض المغيب والغيبة ، والحَضَرُ : خِلافُ البَدوِ ، والحَاضِرُ : خَلاف البادي ، الحاضِرُ : المقيم بالبادية ، والحَضَرُ و الحَاضِرَةُ : خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار ...، و الحَاضِرَةُ : الحيُّ العظيم أو القوم[4].

ويذهب الراغب الأصفهاني إلى أن حضر : الحَضَرُ خِلاف البَدوِ ، والحَضارةُ والحِضارةُ السكُونُ بالحَضَر كالبِدَاوةِ والبَدَاوةِ ، ثم جعل ذلك اسما لشهادة مكان أو إنسان أو غيره ، فقال الله تعالى : "كتب عليكم

(1) محمود تيمور، ألفاظ الحضارة 1981، مجلة اللبنان العربي ، 1982، مكتبة التنسيق والتعريب، م9 ، ج1، ص : 404.
(2) محمد نصر عارف ، الحضارة-الثقافة-المدنية"دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم"، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، عمان،ط2،1994،ص:15
(3) ابن منظور، لسان العرب ، حرف باب الراء ، دار صادر ، م4 ، بيروت ، ط1 ، 1955، ص : 196.
(4) المصدر نفسه ، ص : 197.

إذا حَضَرَ أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين " [سورة البقرة – الآية 180]، وقد ورد في المعجم الوسيط (حَضَرَ) فُلانٌ – حِضَارَة : لأقام في الحَضر ، و حَضَرَ الغائب حُضُورا : قَدِمَ ، (تحضَّر) : تخلَّق بأخلاق أهل الحَضرِ وعاداتهم[1].

و (الحَضارة) بكسر الحاء و فتحها تعني الإقامة في الحضر ، والحِضارة ضد البداوة ، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ، والحِضارة مظاهر الرقي العلميّ والفنيّ والأدبيّ والاجتماعي في الحضر ، (الحَضَر) المدن والقرى والريف ، (الحاضِرة) خلاف البادية[2].

وإلى نفس السياق يذهب جميل صليبا* إلى أن الحضارة (E)–Civilisation(F) Civilization ضد البداوة وتقابل الهمجية والوحشية ، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني ، ويضيف أيضا ، أنها تمثل : " ملة مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع أو مجتمعات متشابهة ، وهناك حضارات قديمة وأخرى حديثة ، شرقية وأخرى غربية ، والحضارات متفاوتة فيما بينها ، ولكل حضارة نطاقها (aire) وطبقاتها (couches) ولغاتها (langues)[3].

من خلال ما ورد من معان ، يتضح جليا أن معنى الحضارة عند العرب متقارب على العموم فهو يتمحور حول ذلك النمط من الحياة المناقض والمقابل للبداوة ، فالحضارة في جذرها اللغوي تركز على الجانب الاجتماعي ، لأن حياة الاستقرار تؤدي إلى نشوء علاقات اجتماعية فتزداد المصالح ارتباطا لتتجه الجهود نحو بناء حياة أحسن فالاستقرار هو المنشئ للمدن و الأمصار[4].

---

(1) الراغب الأصفهاني ، معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تر: نديم مرعشلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، 1972 ، ص : 121.
(2) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط ، مطابع دار المعارف ، ط1، ج1 ، القاهرة – مصر ، 1973 ، ص ص : 180-181.
* جميل صليبا (1902-1976) مفكر ومؤرخ فلسفة سوري .
(3) جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، تص : إبراهيم مدكور، مجمع اللغة العربية ، مصر ، 1983 ، ص : 73.
(4) مصطفى النشار ، في فلسفة الحضارة جدل الأنا والآخر نحو بناء حضارة إنسانية واحدة ، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1،القاهرة – مصر ، 2007 ، ص : 20 .

إن كلمة "حضارة" و"تحضّر" لم تكن شائعة في استعمالات العربية اللغوية في البداية وذلك طيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الإسلامية، ويكاد يكون ابن خلدون* أول من نبه إليها واستخدمها في مقدمته، من خلال اصطلاحه الخاص " العمران البشري " وهو يقابل مصطلح " الحضارة البشرية "[1].

و ورد معنى مصطلح الحضارة أو قريبا منه مكررا في مقدمة عبد الرحمان ابن خلدون، وكان في ذلك أسبق بعدة قرون ممن خاض في هذا الميدان من علماء الغرب الذين اعتبروا روادا لهذه الدراسات، أمثال الفرنسيين Auguste Comte أوغست كونت (1798-1857) و Emile Dur Kheim إميل دور كايم (1858-1917)[2] ، لكن ابن خلدون استعمل كذلك مصطلح العمران للتعبير عن الاجتماع البشري ونتاجه كما استعمل علم العمران مشيرا إلـى دراسة ظواهر هذا الاجتماع، فابن خلدون يستعمل العمران البشري ليشير به إلى الحضارة والاجتماع الإنساني زما يتعلق به ، ويعني هنا العمران العام ، بغض النظر عن نوع الحضارة أو النتّاج، و إن كانت نوعية الحضارة الفاضلة ومستواها الإنساني كامنا في فهمه وتصوره عموما وشمولا وأساسا وقياسا[3].

وهنا يقول ابن خلدون : " اعلم أن حقيقة التأريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبية ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم و مساعيهم من الكسب و المعاش و العلوم و المصانع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال"[4].

و يقول أيضا : " أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع ، أي أن لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران" ، وقد استعمل الفلاسفة العرب لفظة " مدني" بمعنى " اجتماعي" أخذا عن اليونان الذين كانت المدينة عندهم مظهر الاجتماع المنتظم المتحضر"[5].

* ابن خلدون (1336-1406) مؤرخ وفيلسوف وعالم اجتماع عربي ولد بتونس ، ويعتبره الكثيرون المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع من مؤلفاته: مقدمة (كتاب العبر) التي اشتهرت باسم مقدمة ابن خلدون .

(1) سليمان الخطيب ، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ، ط1 ، القاهرة – مصر ، 1986 ، ص : 10.

(2) محمد خاتمي ، حوار الحضارات ، تر: سرمد الطائي ، دار الفكر ، ط1 ، دمشق – سوريا ، 2002 ، ص : 23.

(3) عبد الرحمان علي الحجي ، أضواء على الحضارة والتراث ، شركة الشهاب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص ص : 68-69.

(4) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" ، تق : محمد الاسكندراني ، دار الكتب العربي ، بيروت – لبنان ، 2008 ، ص : 41.

(5) المصدر نفسه ، ص : 48.

كما استعمل ابن خلدون صيغة التمدن بمعنى التحضر أو الحضارة فقال : " إن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم... وأن الحَضَر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ، ولاشك أن الضروري أقدم من الكمالي وسابق عليه ، لأن أول مطالب الإنسان الضروري و لا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا في خشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها ومتى حصل على الرّياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلـــى الدعة وأمكن نفسه إلى قيادة المدنية وهكذا شأن القبائل المتبدية كلِّهم ...أن البدو أصل للحَضر ومتقدم عليه وأن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فتفهَّمه"[1].

والحضارة عنده تعني أيضا الاستقرار وما ينتج عنها من فنون الحياة ومظاهرها حيث يقول : " العمران هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش...ومن العمران ما يكون بدويا و هو الذي يكون في الضواحي و في الجبال ، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها[2].

و كنموذج للعمران عند ابن خلدون فهو يعني مجموع مركبات البنيات التحتية والفوقية للمجتمع، ، فإن العمران يعني جميع الظاهرات الاجتماعية سواء منها التشكيلية أم الوظائفية ، ولهذا نلاحظ أن العمران عنده على نوعين ، ما يكون بدويا وما يكون حضريا[3].

إذا كان العمران يوجد في شكلين : الشكل البدوي (البادية) والشكل الحضري (الحضارة) فغن العمران عنده ينبني على ثلاثة مستويات وهي : المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي[4].

(1) محمد حسن نصر ، مفهوم الحضارة عند ابن خلدون وهيجل - دراسة مقارنة -، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع ،ط1 ، طرابلس – ليبيا ، 1993 ، ص : 17.
(2) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص : 123.
(3) المصدر نفسه ، ص : 125.
(4) علوي طه الصافي ، تعريف الثقافة ومفهومها ، مجلة فيصل ، العدد 193 ، ديسمبر 1988.

إن مفهوم البادية يخفي واقعا أشد من البداوة البسيطة، فتحت عبارة بدوي يجمع ابن خلدون في نفس الوقت كبار البدو بمعنى الكلمة (مربوا البقر والغنم) وحتى المزارعين، إن مفهوم البادية لم يشر إذن إلى واقع توبولوجي ولكن إلى الواقع الاجتماعي، فعلى المستوى الاقتصادي تتضح البادية قبل كل شيء بكونها نمطا معينا من إنتاج الخيرات الضرورية للحياة، أما على المستوى السياسي فإن الجماعة السياسية الأساسية في البادية مكونة من القبيلة بينما يتحدد المستوى الثقافي بطابعه الأول (البدائية)، إن العلوم منعدمة علميا ما عدا بعض مبادئ الطب التجريبي، الصنائع تتحدد بالتقنيات المستعملة مباشرة، يكوّن الدين الذي يرتبط به الشعر والغناء يعدا رئيسيا للعلم[1].

لا يقتصر مفهوم الحضارة بلا استثناء على أهل المدن فهو يجمع كل البشر الذين لم تتحدد علاقتهم بالطبيعة بواسطة الاستعمال بل بالعمل على التحول وهذا ما يؤدي بالضرورة إلى التحضر، اقتصاديا تتميز الحضارة بالتغير الجذري في طرق إنتاج الخيرات المادية وفي حجم هذه الخيرات،سياسيا تتميز الحضارة بوجود الدولة بوصفها مجموعة مؤسسات سياسية خاصة بعيدة جزئيا عن علاقات النسب، ثقافيا : الحاضرة هي مكان انطلاق العلم الذي لا يوجد إلا في حالة بدائية في البادية، التقنيات والعلوم والصنائع تتطور بينما الدين يفقد قوته ، وتكمن العلاقة بين البادية والحضارة في كونهما شكلين من وجود العمران، وأن صراعهما يكون أساس حركة العمران، تاريخيا : البادية تسبق الحضارة وتفسر هذه الأسبقية بأسباب اقتصادية لإيجاد التمدن، يجب خلق فائض إنتاج اجتماعي هذا هو إذن تحول المعاش الذي يحدد الانتقال من البادية إلى الحضارة[2].

---

[1] جولز هندي ، مصطلح البدائية عند كبرهايغر أشالي مونتناغ البدائية ، تر: محمد عصفور ، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، طلع المعرفة ، العدد 53 ، مايو 1986 ، ص : 332 .

[2] عبد القادر جغلول ، الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، ط4 ، بيروت – لبنان ، 1987 ، ص ص : 127-131.

كما أن ابن خلدون استخدم مفهوم العمران خاصة كمرادف للثقافة، ونحن نعلم علم اليقين أن هذه الكلمة في نظر علماء الاجتماع والاختصاصيين بعلم الإنسان مقابلة لكلمة " الطبيعة " ... وجملة القول إنّ العمران ينطوي على كل ما يمكن للمجتمع البشري أن يجعله مقابلا للمجتمعات الحيوانية وأول ملاحظة لسنا في غنى عنها هي أن العمران أو الثقافة ليس مرادفا للتفنن و " العادات الحسنة " وليس مرادفا للنشاطات الفكرية العادية[1].

وعليه يمكن القول إن العمران البشري هو المجتمع أو الحياة الاجتماعية الإنسانية بكل أشكالها دون تحديده، أما الحضارة فهي شكل متقدم من أشكال العمران الإنساني، يتميز اقتصاديا بتجاوز الاكتفاء بضرورات العيش أيا كانت مستويات هذا التجاوز، كما يتميز بتكوين وحدات سكانية كالقرية و المدينة، وهما شكلان متقدمان من الحياة الاجتماعية يؤديان ضمن ما يؤديان وظيفة اقتصاديا يعتبرها ابن خلدون أساسية في حياة العمران[2].

يرى ابن خلدون أن الحضارة أو الدولة تمر بثلاثة أجيال متعاقبة وهي مراحل حتمية يكون فيها التدهور نهاية كل حضارة وهي :

1- مرحلة البداوة : ويتسم هذا الجيل بالشجاعة وتماسك العصبية والإنتاج البسيط.

2- مرحلة التحضر : و فيه يتم الانتقال من البداوة إلى التحضر عبر اكتساح الأطراف للمراكز... والعامل الحاسم في هذا الانتقال هو تماسك قوة العصبية، وبعد الاستقرار يتجهون إلى تأسيس الدولة وجمع المال والانغماس في الترف وبناء القصور وإعداد الجند وتكون الدولة مرهوبة الجانب[3].

3- مرحلة التدهور : في هذه المرحلة يشتد بطش الحاكم بعصبيته فتضعف نتيجة لزيادة الترف فتكون العصبية غير قادرة لا علا تحصيل حاجاتها و لا على الدفاع عن الدولة ، فيطمع الأعداء في الاستيلاء على ثروة دولة منهارة، و يشتد غضب المحكومين من الحاكم لزيادة فرضه الجباية، واستعانته بالموالي بدلا من من عصبيته التي خارت قواها، فيزداد الاستهلاك ويقل الإنتاج وتتفاقم الأوضاع، فيحدث التدهور وتتهاوى

---

(1) عبد الغني مغربي ، الفكر السوسيولوجي عند ابن خلدون ، تع : محمد الشريف بن دالي حسين ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2006 ، ص ص : 127-128 .

(2) محمد حسن نصر ، مفهوم الحضارة عند ابن خلدون وهيجل - دراسة مقارنة -، المرجع السابق ، ص : 29.

(3) حسن محمد الكحلاني ، فلسفة التقدم – دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ - ، مكتبة مديولي ، ط1 ، القاهرة – مصر ، 2003، ص ص : 57-58 .

الدولة تحت قبضات الخارجين والأعداء ذلك أن الموالي لا يمكن أن يكونوا أكثر إخلاصا من عصبية الحاكم[1].

وفي هذا الصدد يرى ابن خلدون " أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشرِّ والبعد عن الخير "، وهنا يشير ابن خلدون إلى المرحلة الأخيرة التي تمر بها الدولة- كما سبقت الإشارة إلى ذلك – عندما تنفك رابطة العصبية[2].

على الرغم من أن ابن خلدون لم يكن يتحدث عن مفهوم الحضارة كمفهوم كلي شامل يؤطر لحركة البشرية ويلقي عليها بصفات قيمية معنية – بل إن هذا المفهوم متسق تماما مع بنائه الفكري في " المقدمة " وحديثه عن تطور الدولة ومراحلها – إلا أن استخدامه للمفهوم قد توافق مع جذور المفهوم الأوروبي " Civilization " ومن ثم وقف الباحثون العرب عند الدلالات التي أعطاها ابن خلدون للمفهوم، والذي اقتصر على الإقامة في الحضر بخلاف البادية[3].

ويعتبر مالك بن نبي* من أبرز المفكرين العرب الذين اهتموا بقضية الحضارة بعد ابن خلدون إذ ركز تفكيره حول هذه من أجل تأصيلها ودارسة مشكلاتها، مدركا بأن مشكلة كل شعب هي في جوهرها حضارته ، ومن هنا كان اهتمامه منصبا على قضية الحضارة ومشكلاتها، وقد عرّف الحضارة من عدة جوانب وسنقف نحن عند تعريفين : الوظيفي والتركيبي[4].

---

[1] مقدمة ابن خلدون ، مصدر السابق ، ص : 124.
[2] محمد نصر عارف ، الحضارة-الثقافة-المدنية"دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم"، مرجع سابق ، ص : 55.
[3] رلف شون ، الأصول الحضارية للشخصية عبد الحميد اللبان ، درا اليقظة العربية ، بيروت – لبنان ، 1964 ، ص : 6.
* مالك بن نبي (1905 – 1972) مفكر جزائري ولد بقسنطينة ، أتم دراسته الثانوية في الجزائر ودراسته الجامعية في باريس حيث تخصص بالهندسة الكهربائية وبعد استقلال الجزائر عُين مديرا لتعليم العالي ، ثم أسس ندوة فكرية أسماها " سوسيولوجيا العالم الإسلامي " وكان يدعو دائما لإقامة " كومنولث إسلامي " وله العديد من المؤلفات أشهرها مشكلة الثقافة ، شروط النهضة .
[4] سلامة موسى ، الثقافة والحضارة ، مجلة الهلال ، القاهرة – مصر ، ديسمبر 1967 ، ص : 182.

و يتمثل هذا التعريف في اعتبار الحضارة : " جملة الشروط المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه "[1] ، حيث يعتبر مالك بن نبي أن الحضارة وظيفة أساسية لأي مجتمع متحرك في التاريخ وهي نتيجة حركة نفسية واجتماعية[2].

فالتعريف الوظيفي للحضارة يكشف لنا جانبين ، الجانب المعنوي : الذي يتضمن شروطها المعنوية في صورة إدارة تحرك المجتمع نحو تحديد رسالته الاجتماعية و إنجازها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية : في صورة مكان فيضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بوظيفته الحضارية[3].

فالحضارة بهذا المعنى تمثل المناخ الذي يوفر للفرد الحرية والحماية، ويقدم له كل ما يحفظ وجوده وشخصيته ويقيه من التدهور في مختلف المجالات[4].

يذهب مالك بن نبي إلى أن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن " الحضارة هي التي تلد منتجاتها " ... فليس من الواجب لكي ننشئ حضارة أن نشتري كل منتجات الآخر... وهو يقود في النهاية إلى عملية مستحيلة كما وكيفا "[5].

إن الحضارة في منظور مالك بن نبي حركة بناء، وفي ذلك إقرار صريح بأنها ليست عملا تكديسيا، مع الاحتفاظ بالطبع هنا بصواب فكرة الاستفادة الواعية من المجتمعات الأخرى ، وفي هذا الصدد يذهب أسعد السحمراني إلى أن عملية التحضر تكون كمن يحرث البحر إذا فهم بعض الناس أن الحضارة هي استيراد أشياء الأمم الأخرى أو استعارة فكرها ومنتجاتها، إن في الفهم بذرة موت الطموح الحضاري للشعوب وعليه ، لكي نحل مشكلة الحضارة فإنه يتوجب علينا الاتجاه نحو بناء (تركيب) الحضارة لا إلى تكديس منتجاتها، لأن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التالية : ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت[6].

---

(1) Malek Ben Nabi: Le Probléme Des Idées Dans Le Monde Musulman ;édition El Byynate , Alger , 1990 , p : 29.

(2) سلامي موسى ، المرجع السابق ، ص : 182.

(3) عمار الطالبي ، دراسات في الفلسفة و في الفكر الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 2005 ، ص : 672.

(4) موسى لحرش ، إستراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي ، مختبر التربية و الانحراف و الجريمة في المجتمع ، الجزائر ، 2006 ، ص : 67 .

(5) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، تر : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، ط4 ، سوريا ، 1987 ، ص : 47.

(6) أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، دار النفائس ، بيروت – لبنان ، 1986 ، ص ص : 146-147.

ففي المصباح مثلا يوجد الإنسان خلف العملية والصناعية التي يعدُّ المصباح ثمرتها، والتراب في عناصره من موصل وعازل، وهو يتدخل بعنصره الأول في نشأة الإنسان العضوية، والوقت (مناط) يبرز في جميع العمليات البيولوجية والتكنولوجية، وهو ينتج المصباح بمساعدة العنصرين الأولين : الإنسان والتراب[1].

وهذه الصيغة صادقة بالنسبة لأي ناتج حضاري في مجال المادي والمجال الروحي، مما يعني أن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية : مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، ومشكلة الوقت[2].

ولكي يحصل هذا الناتج " الحضارة " لابد من مركب للحضارة وهو العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، والتحليل التاريخي يدل على أن "المركب" الذي رافق دوما تركيب الحضارة في التاريخ هو الفكرة الدينية "فالحضارة لا تنبعث –كما هو ملاحظ – إلا بالعقيدة الدينية"، وخير مثال على ذلك الحضارة الإسلامية، و يعتبر مالك بن نبي مفكرا متميزا أضاف إلى الفكر الإسلامي المعاصر الكثير من الأفكار الواعية التي تهتم بدارسة الواقع الاجتماعي وتهدف إلى تحديد شروط النهضة[3].

ولعلّ أوّل من حاول إبراز دور الفكرة الدينية في تكوين الحضارة هو "ابن خلدون" حيث خصص في مقدمته فصلا بعنوان: "أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة"[4].

ومن بين ما يؤيّد هذا الطرح أن دراسة الحضارات الإنسانية تكتشف عن الدور الجوهري الذي قام به الدين في بنائها، فقد أصاب دارسوا الحضارات الذين رأوا أنه لم تنبثق حتى الآن حضارة من غير أن يجمعها الدين ويوحد مجتمعاتها ، فهو دائما كان الرابطة العليا التي توحد توازن الأفراد فتشهدهم بقوة وتوحد تطلعاتهم وتنظم سلوكهم[5].

---

[1] مالك بن نبي ، شروط النهضة ، مرجع السابق ، ص : 49.
[2] مالك بن نبي ، ميلاد المجتمع ، دار الفكر ، دمشق – سوريا ، 1997 ، ص : 24.
[3] محمد عبد السلام الجفائري ، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي ، الدار العربية للكتاب ، ط1 ، طرابلس ، 1984 ، ص : 87.
[4] مرجع السابق ، ص : 88.
[5] عبد المنعم شوقي ، مجتمع المدنية ، عرض الكتاب الفكري العربي ، العدد 30 ، ديسمبر 1983 ، ص : 138.

كما أن "الذي يتأمل تاريخ الحضارة الإنسانية،سرعان ما يكتشف أن الفكرة الدينية كانت دائما بمثابة حجر الزاوية في صنع الحضارات – إيجابا أو سلبا – فتقدم الإنسان كان يتم وفق عملية متوازنة بين نتائج العقل وإمكاناته، وبين عطاء الإيمان الذي يمثل شحنات الدافع في مسيرة الإنسان الحضارية[1].

بالرغم من المساهمات التي قدمها مالك بن نبي في مجال الحضارة إلا أن هناك من أعاب عليه بأنه عندما تناول مشكلة الحضارة أبرزها كعلاج لأزمة التخلف في العالم الإسلامي، وقد ربط المشكلة بإطار الزمان والمكان الذي عاصرهما بالإضافة إلى منهجه في الصياغة الذي يغلب عليه منهج العلمي نتيجة لثقافته العلمية التخصصية[2].

[1] مالك بن نبي ، أفقي جزائرية ، مكتبة عمار ، ط1 ، القاهرة – مصر ، 1971 ، ص : 38.
[2] محمد عبد السلام الجفائري ، المرجع السابق ، ص: 88.

المبحث الثاني : في مفهوم الحضارة عند الغرب .

بعد أن تناولنا أبرز النماذج لاستعمال مصطلح الحضارة في المجال العربي، نعرج الآن إلى الاصطلاح الغربي لكلمة الحضارة، ويعود أصل الكلمة الأوروبية "Civilisation" إلى الجذر اللاتيني " Civites" بمعنى مدينة، و "Civis" بمعنى ساكن المدينة، أو "Civilis" بمعنى مدني أو ما يتعلق بساكن المدينة أو "Citizen" وهو ما يُعرَّف به المواطن الروماني المتعالي على البربري، ولم يشتق منها "Civilization" حتى القرن الثامن عشر[1].

وإلى نفس المنحى ذهب أحمد محمود صبحي إلى أن لفظ حضارة مختلف على مفهومه، لفظ الحضارة مشتق من الحضر، كما أن لفظ مدينة مشتق من المدينة سواء في اللغة العربية أو اللغات الغربية، فلفظ Civilisation مشتق من Civitos في اللاتينية بمعنى المدينة أو Civis بمعنى ساكن المدينة أو Civilis بمعنى مدني أو ساكن المدينة حيث تقوم الحياة المتحضرة عادة في المدن وبين الحضر، أي سكان المدن لما يتوفر من ثروات تجارية أو صناعية فضلا عن الانجازات البشرية من اختراعات وابتكارات ومفكرين وفلاسفة وعلماء ، بينما لا تسمح حياة البدو أو سكان الجبال أو الريف بقيام تحضر أو مدينة أو على أقل لا تزدهر الحضارة إلا في المدن ، وقد تنجب القرية عباقرة أو مفكرين أو علماء أو فلاسفة ولكن لا تجلى عبقريتهم إلا بعد هجرتهم إلى المدينة[2].

كما تستعمل لفظ Culture للدلالة على معنى الحضارة وهي مأخوذة عن اللاتينية Cultura من فعل Colere بمعنى حرث أو نمّى، وقد كانت دلالة الأصل اللاتيني في العصور القديمة والوسيطية مقصورة على تنمية الأرض ومحورها – تلك الدلالة التي نجدها في Agrivulture ....[3]وفي أوائل العصور الحديثة بدأت تستعمل في الإنجليزية والفرنسية بمدلوليها المادي والعقلي، مع إضافة الشيء المقصود تنمية La Culture Des Lettes – LaCulture Du Blé . و مثلها في الإنجليزية[4] ، فلما كان القرن الثامن عشر أخذ الكتاب الفرنسيون كفولتير و أقرانه يطلقون هذه اللفظة إجمالا دون إضافة إلى شيء

---

[1] زكي الميلاد ، تعارق الحضارات ، دار الفكر،ط1 ، دمشق – سوريا ، 2006 ، ص : 26.
[2] محمد نصر عارف ، الحضارة-الثقافة-المدنية"دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم"، مرجع سابق ، ص : 33.
[3] أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر ، في فلسفة الحضارة (اليونانية – الإسلامية – الغربية) ، دار النهضة العربية ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 1999 ، ص : 6.
[4] عباس الحديثي ، نظريات السيطرة الإستراتيجية وصراع الحضارات ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، ط1 ، الأردن ، 2004 ، ص : 60.

معين ، وغدت Culture بهذا المعنى المطلق تدل على تنمية العقل والذوق ، ثم انتقلت حصيلة هذه العملية إلى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التي نعبر عنها بالعربية بلفظ الثقافة[1].

أما لالاند فقد عرَّف الحضارة على أنها : " مجموعة ظواهر اجتماعية مركبة، ذات طبيعة قابلة للتناقل، تتسم بسمة دينية أخلاقية جمالية فنية تقنية أو علمية، ومشتركة بين كل أجزاء في مجتمع عريض أو في عدة مجتمعات مترابطة ، " الحضارة الصينية "–"الحضارة المتوسطية"[2].

وعليه فمنذ القرن 18 م أخذ مصطلح الحضارة المعروف لدينا اليوم معناه عن اللغات الأوروبية، كما أن مدلوله يتضمن معنى الاستقرار والتنظيم شأنه شأن اللغة العربية.

الحضارة عند ول وايريل ديورانت Will(wairil)Durant* نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية،والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا أَمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، بعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها[3].

يعتبر هذا التعريف نوعا ما جامعا لجوانب الحضارة باعتبارها تنظيم اجتماعي له نظمه السياسية، وعادات وتقاليد أخلاقية، ويؤدي وظيفة أساسية ألا وهي الثقافة، كما يشير إلى عوامل قيامها كالموارد الاقتصادية وخاصة الأمن والاستقرار، لأن الحرية دافع للإبداع ولتوحيد الجهود نحو التقدم، كما لا يغفل الانفتاح على الفنون ومواكبة العلوم[4].

---

(1) قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة " دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها في الواقع الحضاري" ، دار العلم للملايين ، ط4 ، بيروت –لبنان ، 1981 ، ص ص : 32-33 .

(2) أندري لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، تع : خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، ط2 ، م1 ، بيروت ، 2001، ص : 171.

* ول ديورانت Will Durant(19885 -1981) مرب ومؤلف أمريكي ، يعتبر أحد الكتاب الذين وقفوا جهودهم على تبسيط التاريخ والفلسفة ، أشهر آثاره : الفلسفة والمشكلة الاجتماعية ، قصة الفلسفة ، وقصة الحضارة في عشر مجلدات .

(3) ول ديورانت ، قصة الحضارة – نشأة الحضارة في الشرق الأدنى ، تر : زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، م1 ، ط3 ، 1965 ، ص : 3 .

(4)_B.Taylor‹Dictionry Of Onthropology ‹1988‹ p: 117.

إن الحضارة عند اشفيستر Albert Schweitze** بكل بساطة معناها بذل المجهود، بوصفها كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم، من أي نوع كان في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي ، وهذا الموقف يتضمن استعدادا مزدوجا : فيجب أولا أن نكون متأهبين للعمل إيجابيا في العالم والحياة، ويجب ثانيا أن نكون أخلاقيين... إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزما واضحا صادقا على بلوغ التقدم ويكرسون أنفسهم تبعا لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم، وفي الأخلاق وحدها نجد الدافع القوي إلى مثل هذا العمل، فنتجاوز حدود وجودنا[1].

إن جوهر الحضارة وحقيقتها بهذا المعنى يكتسي صبغة أخلاقية بحتة، كما يتوقف هذا الجوهر على مدى ما يتمتع به الأفراد من استعدادات عقلية ونفسية فعلية من أجل تكميل النوع الإنساني وبلوغ التقدم، ولهذا فالحضارة في تصوره العام هي " التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على سواء "[2].

نلاحظ أن هذا التعريف يؤكد تلاحم الجانبين الروحي والمادي في معنى الحضارة، كما أنه قدم الجانب الروحي على الجانب المادي، فأسبقية الروح على المادة هي ما يؤكد في الحضارة إنسانية الإنسان، فلا معنى لأي تقدم مادي ما لم يسبقه ويقوده و يساوقه التقدم في المجال الروحي والأخلاقي[3].

أما البعض فقد اعتبر أن الحضارة الإنسانية بوجه عام هي صورة كفاح الإنسان في هذه الحياة، وهي تمثل في أي عصر من عصور البشرية أرقى ما وصل إليه الإنسان في تنمية واكتساب القيم الأخلاقية، وتمثل أرقى صورة وصل إليها المجتمع الإنساني في التقدم العلمي والفني[4].

** ألبرت اشفيتسر Albert Schweitze (1875 -1965) فيلسوف أخلاقي و لاهوتي وطبيب ألماني وموسيقار ، نال جائزة نوبل للسلام سنة 1952 .

(1) ألبرت اشفيتسر ، في فلسفة الحضارة ، تر : عبد الرحمان بدوي ، دار الأندلس ، ط2 ، بيروت – لبنان ، 1980 ، ص ص : 5-6.

(2) ألبرت اشفيتسر ، المرجع السابق ، ص : 34.

(3) عطية فتحي الويشي ، الحضارة إشكالية المصطلح ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، العدد16 ، 1990 ، ص 388.

(4) مصطفى النشار ، في فلسفة الحضارة جدل الأنا و الآخر نحو بناء حضارة إنسانية واحدة ، المرجع السابق : ص : ص 22.

كما يذهب اشفيستر إلى أن محاولة التمييز بين الحضارة (Kultur) كما يسميها الألمان وبين المدنية بوصفها مجرد التقدم المادي، يهدف إلى جعل العالم يألف فكرة من الحضارة لا أخلاقي إلى جانب نوع أخلاقي منها، كما يهدف إلى إلباس النوع الأول بلباس كلمة ذات معنى تاريخي، لكن لا شيء في تاريخ كلمة Civilisation يبرر هذه المحاولة، فالكلمة قد استعملت حتى الآن بنفس المعنى المفهوم من كلمة Kultur ، أعني تطور الإنسان إلى مرحلة من التنظيم الأعلى وإلى مستوى أخلاقي أسمى[1].

وبعض اللغات تفضل استعمال أحدهما، وبعضها الآخر يفضل استعمال الأخرى، فالألمان يستعملون عادة كلمة Kultur، والفرنسيون كلمة Civilisation لكن ليس ثمة مبررا لغويا أو تاريخيا، لوضع تفرقة بين كلتا الكلمتين، إننا نستطيع التفرقة بين حضارة Kultur أخلاقية وحضارة لا أخلاقية، أو بين مدنية Civilisation أخلاقية ومدنية لا أخلاقية، لكننا لا نستطيع التفرقة بين الحضارة Kultur وبين المدنية Civilisation [2].

يبدو جليا أنه لا يفرق في الاستعمال بين لفظ الحضارة ولفظ المدنية، و أن المدنية أعظم شأنا وأرقى درجة من الحضارة، وان هناك قاسم مشترك بينهما وهو تحقيق التقدم الأخلاقي ، ولهذا عندما طرح اشفيستر السؤال ما هي الحضارة إذن ؟ أجاب بأنها : " جماع كل تقدم حققه الناس وكل فرد في مجال من مجالات العمل ومن كل وجهة نظر، من حيث كون التقدم يساعد الكمال الروحي للأفراد، فهذا الأخير هو التقدم كل التقدم "[3].

ومعنى هذا أن اشفيستر يسخر الجانب العلمي للأفراد و الجماعات من أجل الرقي والكمال والأخلاقي وهو عين التقدم عنده.

---

(1) حسين مؤنس ، الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيمها وتطورها ، سلسلة علم المعرفة ، الكويت ، العدد1 ، يناير 1978، ص : 72.
(2) ألبرت اشفيتسر ، مرجع سابق ، ص ص : 36 – 37 .
(3) المرجع نفسه ، ص : 113.

يعرّف شبنجلر* Oswald Spengler الحضارة بأنها : الظاهرة الرئيسية لكل تاريخ عالم ماض ومستقبل[1] ، كما يعرفها بأنها كينونة واعية لنظام عضوي ضخم واحد ، نظام لا يجعل فقط العادة و الأساطير والتقنية والفن بل أيضا الأقوام والطبقات التي تضمها أحشاؤه ، أوعية للغة شكل واحد وتاريخ واحد[2].

الحضارة عند شبنجلر تشبه الكائن العضوي، فلكل حضارة دورة حياة من نمو ثم شباب ثم شيخوخة يعقبها فناء ، لذلك كان للحضارات والشعوب واللغات والحقائق و الآلهة والبيئات نمو و شيخوخة، كما أن للبلوط والصنوبر والأزهار والأغصان والأوراق نموا وشيخوخة... ولكن الحضارة إمكانية تنبت تنضج وتذبل وتفنى إلى غير عودة....فالتاريخ إذن مكون من كائنات عضوية حية هي الحضارات، وكل حضارة منها تشابه الكائن العضوي تمام التشابه، فتاريخ كل حضارة كتاريخ الإنسان أو الحيوان أو الشجرة سواء بسواء، والتاريخ العام هو ترجمة حياة هذه الحضارات، فإذا كان سياق الحياة واحدا بين الأفراد التي تدخل تحت نوع واحد، فالحضارات جميعا سياق واحد تسير عليه[3].

يصف شبنجلر سياق كل حضارة فيقول : " تولد الحضارة في اللحظة التي توقظ فيها نفس عظيمة الروحانية الأولية للإنسانية الأبدية للطفولة، وتعزل نفسها لتصبح شكلا مما لا شكل له، وشيئا محدودا فانيا مما هو خالد، وغير محدود، فتزدهر في تربة رقعة من الأرض محددة لها ومعرفة بها تعريفا تاما، حيث تبقى ملتصقة برقعة الأرض هذه شانها في ذلك شأن النبات ثم تموت عندها تحقق هذه النفس كامل إمكاناتها في أشكال شعوب ولغات ومذاهب وفنون ودول وعلوم وتعود إلى نفسها الأولية"[4].

فكأن الحضارة إذا روح زاخرة بالإمكانيات والقوى الخصبة المتوثبة للتحقيق، تأتي إلى الوجود الحي في بيئة خارجية معينة تشيع فيها قوى عديدة في حالة فوضى مطلقة ولا شعور مظلم التجأت إليه هي وما تنطوي عليه من حقد وكراهية، فتبدأ بتوكيد صورتها ضد هذا الخليط و اللاشعور فارضة عليهما صورتها، وتاريخ حياتها هو تاريخ هذا النضال الشاق العنيف بينها وبين هذه القوى... وعلى هذا النحو تستمر

* أسوالد شبنجلر Oswald Spengler (1880 – 1936) فيلسوف ألماني ، كان مثاليا في نظرته الفلسفية ، من مؤلفاته " انهيار الحضارة الغربية " في مجلدين .

(1) أسوالد شبنجلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ج1 ، تر : أحمد الشيباني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، 1964 ، ص : 214

(2) أسوالد شبنجلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ج2 ، تر : أحمد الشيباني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، 1964 ، ص : 30.

(3) عبد الرحمن بدوي ، شبنجلر ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، ص ص : 100-101.

(4) أسوالد شبنجلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ج1 ، المرجع السابق ، ص : 217.

الروح في نضالها ، خالقة في أثناء هذا النضال [1] ، و كأداة لتحقيق الظفر والانتصار، طائفة من الصور والأوضاع قد طبعتها بطابعها الخاص، وطالما كانت تنطوي في باطنها على قوى خالقة، استمرت في هذا الخلق، وظلت تخوض هذا النضال، أما إذا فقدت قواها الخلقة إما باختناقها تحت تأثير روح أخرى أقوى منها وأخصب، وإما لأنها بلغت غايتها وحققت صورتها النهائية، ولم يعد في استطاعتها أن تعلو على الحد الذي إليه علت، بان حققت في الخارج كل ما تحتوي عليه من إمكانيات باطنة ينضب دمها وتتحطم قواها وتتحجر كيانها – فتصبح "مدنية" بعد أن كانت " حضارة" ، ولكن هذا ليس معناه فنائها نهائيا، بل لازالت قادرة على البقاء قرونا أخرى، كما تبقى الشجرة التي استنفد عصارتها الزمان سنوات طوالا لا تزال تمد فيها أغصانها التي أصبحت فريسة للسوس[2].

أن شبنجلر يفرق بين الحضارة والمدنية بخلاف اشتفيتسر، وتبقى المدنية أعلى شأنا (وآخر مرحلة) من الحضارة .

وعرّف هنتغتون* الحضارة بأنها " أعلى تجمع ثقافي للبشر وأوسع مستوى من الهوية الثقافية يكاد يكون شعب ما قد وصل إليها والتي تميز بني البشر عن الأنواع الأخرى ، الحضارة يمكن التحديد بها من خلال كل من العناصر الموضوعية المشتركة، مثل اللغة، التاريخ، الديانة،العادات، المؤسسات، والتعريف بالكيان الذاتي للشعب"[3].

معنى هذا أن الحضارة تشمل الثقافة — حسب هنتغتون — وأن الهوية الثقافية في أوسع مستوياتها والتي اميز شعبا ما تماثل الحضارة لذلك الشعب ، " إن كلا من الحضارة والثقافة يشيران إلى نمط الحياة العام للبشر، وما الحضارة إلا ثقافة كتبت بحروف كبيرة، كلاهما يتضمن القيم والمبادئ والمؤسسات وأنماط التفكير التي تعطي لها الأجيال المتعاقبة في مجتمع ما أهمية أولية "[4].

---

[1] عطي الوشي ، المرجع السابق ، ص : 378.

[2] عبد الرحمن بدوي ، مرجع سابق ، ص ص : 102-103.

*صامويل هنتغتون samuel huntington (1927 – 2008) مفكر أمريكي من أصل يهودي تلقى تعليمه بالو.م.أ بجامعة "ييل" تحصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد ، درس فيها مدة 58 سنة احتل منصب معهد دراسات الحرب والسلام وبعد ذلك أسس مجلة السياسية الخارجية ، وعمل بالبيت الأبيض ، وقام ببحوث معمقة في السياسة العسكرية .

[3] صامويل هنتغتون ، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي ، تر : مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود خلف ، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع ، ط1 ، مصراتة ، 1999 ، ص : 106 .

[4] المرجع نفسه ، ص : 107.

والحضارة بهذا المعنى الذي قدمه هنتغتون يقترب من المعنى الذي ذهب إليه المؤرخ وعالم الاجتماع الانجليزي أرلوند توينبي (Aenold Toynbee) (1889-1974): بأن الحضارة هي نوع خاص لثقافة سادت في مرحلة معينة من التاريخ ،كما يقول توينبي أنه يمكن تعريف الحضارة كوحدة معقولة للدراسات التاريخية(1).

لكن الحضارة حسب المفهوم المتداول هي حالة تاريخية واجتماعية يرتفع بمقتضاها المجتمع من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى وأرقى والحضارة هي الرقي بذلك يتعارض مفهوم الحضارة مع البربرية والوحشية فلا يقبل منطقيا أن يكون المرء متحضرا وهو يستعمل وسائل وحشية كالقتل والتدمير والإبادة الجماعية ويمارس التفرقة العنصرية بين الأجناس، وهي أيضا، مجموع العناصر التي تميز حالة النمو التي بلغها مجتمع ما على المستويات التقنية والذهنية والسياسية و الأخلاقية،أما بالنسبة الثقافية فهي مجموع المعارف والسلوكيات التي يتميز بها مجتمع من المجتمعات أو شخص ما وبصفة عامة كل سلوك أو عادة أو معرفة يتلقاها الفرد اجتماعيا وليس وراثيا وتتكون الثقافة من اللغة والفن والدين والعقليات وحتى الأساطير وكل ما من شأنه أن يؤثر على سلوك الأفراد ونمط حياتهم بصفة واعية أو غير واعية ، وتعتبر اليونسكو أن الثقافة لا تقتصر على مفهوم الضيق الذي ينحصر في الفنون الجميلة والآداب، بل تتجاوز إلى فهم أوسع تصبح بمقتضاها الثقافة مجمل الخصائص البارزة الروحية والمادية والذهنية والعاطفية التي تميز مجتمعا أو فريقا اجتماعيا وهي تتضمن زيادة عن الفنون الجميلة والآداب وأنماط الحياة وأساليب العيش المشترك ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات وقد حددت اليونسكو التزامها بهذا المفهوم في الإعلان العالمي حول التنوع الثقافي الذي أصدرته سنة 2001(2).

(1) Toynbee Arnold , Traduit De L'anglais Par Jacques Potin et Autres ,Paris – Bruxelles ,Séquoia ,1975 ,P P : 41-43.

(2) محمد العربي عزوز ، زمن هنتغتون ؟ صدام الحضارات ونهاية التاريخ ، دار النهضة العربية ، ط1 ، القاهرة – مصر ، 2009 ، ص : 76 .

كما أن المتعارف عليه عند أغلب المؤرخين وفلاسفة التاريخ أن الحضارة هي مفهوم شامل يتجاوز الثقافة والدين ليرقى إلى مستوى نظام اجتماعي متكامل وهي متحركة وديناميكية وليست جامدة ومنكفئة على نفسها كما يصورها هنتغتون فهناك تأثير متبادل بين الحضارات ، وعليه فإن هنتغتون يختزل الحضارة في الثقافة في حين أن الحضارة تضم البعد الثقافي إلى جانب أبعاد أخرى كالتطور الصناعي والتكنولوجي والتطبيقات الطبية والعلمية المختلفة والتشريعات والقوانين ويختزل الثقافة في الدين في حين أن الثقافة هي في ذات الوقت الدين واللغة والفنون بأنواعها، وفي النهاية تصبح الحضارة في مفهوم هنتغتون جوهرا دينيا خالصا يدخل في صدام مع الأديان الأخرى أو الحضارات[1].

[1] محمد العربي عزوز ، المرجع السابق ، ص : 77.

المبحث الأول : بلاد مصر القديمة

تقع مصر (بلاد النيل) في الجزء الشمالي الشرقي من قارة إفريقيا وقد سميت باسم النهر العظيم الذي يمر فيها ، والنيل من أطول أنهار العالم والوحيد الذي ينبع من جنوب هضبة البحيرات الإفريقية (بحيرة فكتوريا) ويصب شمالا في البحر المتوسط ، وتقع مصر في الجزء الشمالي من وادي النيل، وتحيط بوادي النيل صحارى من الجانبين الشرقي والغربي، لذا يعد نهر النيل مصدر الحياة والخصب كما قال المؤرخ اليوناني هيرودوتس (مصر هبة النيل) إذ لولاه لأصبحت مصر أرضا جرداء ،لقد مرت مصر مثل العراق وبلاد الشام بالعصور الحجرية الثلاث (القديم والوسيط والحديث) ثم انتقلت بعد ذلك إلى العصور التأريخية بظهور الكتابة الهيروغليفية في حدود (3000ق.م) وقد استطاع المصريون من توحيد البلاد سياسيا في عهد الملك(مينا) ملك الجنوب ، وتأسيس الدولة الموحدة (عصر الدولة القديمة) وصارت مدينة(منفس) عاصمة للبلاد وتقع إلى جنوب غرب مدينة القاهرة الحالية ، ويقسم الباحثون هذه الفترة الطّويلة إلى ثلاثة مراحل أو دول حكمت مصر خلالها ثلاثون أسرةٍ ملكيةٍ ، وكانت تفصل بين مرحلةٍ وأخرى أحداث هامة، منها الغزو الأجنبي، ممّا أعاق تطوّر البلاد وازدهارها[1] .

أ - المملكة القديمة (3100- 2270 ق.م):

تميز عصر المملكة القديمة من الناحية السياسية بالاستقرار إذ كان الملك (مينا) مؤسس الأسرة الأولى يلقب بملك مصر العليا والسفلى كدليل على وحدة البلاد، ولذلك كان الاستقرار من العوامل التي أدت إلى الازدهار الحضاري لمصر في هذه الفترة ، ومن أهم مظاهره:

– بناء المصاطب فوق سطح الأرض لدفن الموتى ، ثم تطورت إلى مدرج من الحجر يشبه الزقورة في بلاد الرافدين ، ثم في النهاية تطور إلى ما يعرف بالهرم[2].

---

[1] ف. دياكوف ، س . كوفاليف ، الحضارات القديمة ، تر : نسيم واكيم اليازجي ، ج1 ، منشورات دار علاء الدين ، ط1 ، دمشق – سوريا ، 2000 ، ص 118.

[2] سيريل ألدريد ، الحضارة المصرية (من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة) ، تر : مختار السويفي ، الدار المصرية اللبنانية ، ط3 ، القاهرة – مصر ، 1996، ص 68.

– انتشار التدوين بالخط الهيروغليفي (الخط المقدس) .

– ازدهار الصناعات الخزفية واستخدام دولاب الفخار في الصناعة.

– بناء الأهرامات والمقابر العديدة في الضفة الغربية من النهر[1].

إنَ العصرّ الأخير من حكم المملكة القديمة ، يسمى بعصر الأهرامات (2780 –2270 ق.م) وفيه قام الملوك ببناء الأهرامات المدرجة الضخمة المعروفة وأول هرم مدرج في تأريخ مصر شيده الملك (زوسر) أحد ملوك الأسرة الثالثة ، ويقع في منطقة صقارة (جنوب الجيزة) ويتكون من سبع طبقات تحتها غرفة من الحجر فيها مومياء الملك زوسر(وهي جثته المحنطة) ثم قام ملوك الأسرة الرابعة ببناء أهرامات الجيزة (الواقعة جنوب غرب القاهرة) ومن هنا جاءت تسميته بـ (عصر الأهرام) وتعد هذه الأهرامات إحدى عجائب الدنيا السبع التي يزورها ملايين السائحين سنويا، كما وتعتبر الجنائن المعلقة في محافظة بابل إحدى عجائب الدنيا السبع وعلى هيئة الآثار والتراث توفير الخدمات والحماية لهذا الموقع [2].

إنَ تشييدِ المصريين القدماء للأهرام هو تقديسهم لملوكهم إذ اتخذوهم آلهة يعبدونهم في أثناء حياتهم وبعد مماتهم ، لأنهم اعتقدوا بوجود حياة أخرى ما بعد الموت ، لذلك حرصوا على حفظ أجساد ملوكهم محنطة في قبورهم)مومياء(والتحنيط عملية معقدة يقوم بها الكهنة للمحافظة على جثة المتوفي من التلف، والجسم المعالج بهذه الطريقة يسمى (مومياء) ويدفن معها كل ما يحتاجه الملك في الحياة الثانية من مأكل وملبس وحلي وأثاث نفيسة ، كما قاموا ببناء معابد بجوار الهرم لتقديم القرابين للملك المتوفي [3].

---

[1] سيريل ألدريد ، الحضارة المصرية ، المصدر السابق ، ص : 69.
[2] المرجع نفسه ، ص : 71.
[3] حسين سليم ، مصر القديمة (عصر منبتاح ورعمسيس الثالث ولمحة في تاريخ لوبية) ، ج7 ، القاهرة – مصر ، 1950 ، ص ص : 23 – 24.

ب - المملكة الوسطى (2100-1785 ق.م) :

تميزت فترة ما بعد عصر الأهرام بانعدام الاستقرار السياسي وازدياد نفوذ الأمراء الإقطاعيين على حساب سلطة الملك ، وانقسمت البلاد إلى ممالك ودويلات صغيرة استقل فيها حكام المقاطعات بأقاليمهم ،مما أدى إلى ضعف الملوك الفراعنة و انتشار الفوضى وإهمال الزراعة وتفشي المجاعة فحل عهد مظلم تجاوز المئة عام ، وبعدها استعادت مصر عافيتها ووحدتها السياسية زمن الأسرة الحادية عشرة عندما استطاعت مدينة طيبة أن تفرض سيطرتها على بقية المدن المصرية وتعيد وحدة البلاد في عصر المملكة الوسطى (2100 – 1785 ق . م) وشمل الأسرتين (11– 12) المصرية[1].

ج - المملكة المصرية الحديثة (1580-1080 ق.م) :

دام عصر الإمبراطورية المصرية نحو خمسة قرون (1580 – 1080 ق.م) وهو من العصور المهمة في تأريخ مصر من حيث القوة والثروة ، ولذلك تميز بازدهار الأحوال السياسية والاقتصادية ، وتطور الفنون والعمارة وتوسعت الدولة المصرية خارج حدودها حتى شملت جزر البحر المتوسط وشواطئ ليبيا وهضاب الصومال ونشطت العلاقات التجارية بين مصر والمناطق المجاورة[2].

حكمت في هذا العصر ثلاث أسر متعاقبة وهي الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون ، ويعد الملك (أحمس) مؤسس الإمبراطورية المصرية الذي حرر مصر من الهكسوس وأعقبه في محاربتهم خلفه (تحوتمس الثالث) ومطاردتهم إلى بلاد الشام حتى قضى عليهم ، ومن أشهر ملوك هذا العصر (أمنوفس الثالث) وابنه (أمنوفس الرابع) اخناتون وكان للملك امنوفس الثالث علاقات صداقة وثيقة مع الملوك الكيشيين والأشوريين في العراق القديم ، وقد تبادل معهم الرسائل والهدايا الثمينة مثل الخيول والسبائك الذهبية ، واشتهر ابنه امنوفس الرابع (اخناتون) بثورته الدينية التي رفض بموجبها تعدد الآلهة ودعا إلى عبادة الإله الواحد (أتون) قرص الشمس ، وعلى الرغم من أهمية هذه الثورة إلا أنها أحدثت إرباكا في أحوال مصر وضعفا في أرجاء الإمبراطورية[3].

---

[1] حسن أحمد سليم ، موسوعة تاريخ مصر ، ج1 ، 1972 ، ص : 67.

[2] مهران محمد بيومي ، دراسات في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، دار المعرفة الجماعية ، الإسكندرية - مصر ، 2000 ، ص : 168.

[3] عصفور محمد أبو المحاسن ، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم (من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر) ، دار النهضة العربية ، بيروت - لبنان ، ص : 185.

كان المصريون يعبدون آلهة متعددة وبالأخص الإله (أمون) كبير الآلهة المصرية ، غير أن امنوفس الرابع رفضها جميعا ودعا إلى عبادة إله واحد هو أتون (قرص الشمس) وأبدل اسمه من امنوفس إلى (أخن –أتون) ومعناه محبوب قرص الشمس وبنى له عاصمة جديدة في (العمارنة) على الضفة الشرقية لنهر النيل سماها (أخي – ناتون) ، إن هذا التبدل الديني من قبل الملك اخناتون أثار غضب عبدة الآلهة الأخرى وخاصة كهنة معبد الإله (أمون) وكهنة المعابد فتآمروا عليه واستطاعوا القضاء على اخناتون ، ومن مشاهير ملوك هذا العصر الملك (توت – عنخ –أمون) والذي خلف اخناتون و ترك عبادة الإله أتون ورجع إلى عبادة إله أمون إله مصر القديمة كما ترك عاصمة اخناتون وعاد إلى العاصمة القديمة طيبة[1].

لقد كشفت التنقيبات الأثرية عام 1922م في وادي الملوك مقابل العاصمة طيبة على مقبرة تحتوي على كنوز من الذهب والمجوهرات تعود لهذا الملك ، ومنها تابوت من الذهب الخالص فيه صندوق يحتوي على جثمان الملك المحنط (المومياء)، كما عثر على تماثيل ذهبية وقطع كثيرة من الأثاث النفيس مطعمة بالذهب والأحجار الكريمة ، وهي من الكنوز الثمينة المعروضة اليوم في المتحف المصري في القاهرة والذي يجذب الملايين من السواح سنويا لأهميتها السياحية والأثرية ، وفي عصر الإمبراطورية المصرية ولد النبي موسى(عليه السلام) في مصر حيث دعا إلى عبادة الله سبحانه وتعالى[2].

بدأ الضعف في الإمبراطورية المصرية أيام الأسرة الحادية والعشرين والتي كان مركزها في الدلتا واستمر عصر الضعف والتدهور للفترة (الأسرة 21-25) ما أدى إلى تعرض البلاد للهجمات الأجنبية على يد الفرس الأخمينيين عام (525 ق.م)، ومن بعدهم اليونان بقيادة الاسكندر المقدوني عام (332ق.م)، فحكمتها أسرة من أتباعه البطالسة وكانت آخر حكامهم الملكة الشهيرة (كليوباترا السابعة) فوقعت مصر في عام (30 ق.م) تحت الحكم الروماني وخلفه الحكم البيزنطي حتى استطاع العرب المسلمون من فتحها عام (20 هـ /640م)[3] .

---

[1] جاردنز آلن ، مصر الفراعنة ، تر : نجيب مخائيل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط3 ، القاهرة – مصر ، 1987 ، ص : 300.
[2] مهران محمد بيومي ، دراسات في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، المرجع السابق ، ص : 168.
[3] محمد الطاهر الجيراري ، " شيشنق وتكوين الأسرة الثانية والعشرين في مصر القديمة " ، مجلة البحوث التاريخية ، ج2 ، مركز الجاهد الليبي ، 1981.

كان نظام الحكم في مصر القديمة يعتمد على الأسر الحاكمة التي تدير الشؤون الداخلية والخارجية، ويرأسها الملك (الفرعون) ، والفرعون يشرف على الإدارة والجيش وأمور الدين ، فهو المسؤول الديني والدنيوي ومهمته إصدار القوانين وتعيين من يقومون عليها ويساعدونه على إدارة البلاد ، ويقيم في العاصمة التي يختارها مقراً له ، ومركزاً لإدارة شؤون البلاد، والوزير أهم مساعدي الفرعون، وذا صلاحيات واسعة ، ويشرف على تنفيذ المهام الإدارية، ولاسيما الشؤون القضائية والاقتصادية ومنها خزينة الدولة وكان حكام الأقاليم يشرفون على الزراعة والري والتجارة وتنفيذ القوانين وتوفير الأمن والاستقرار ، وجباية الضرائب وضمان نزاهة القوانين وبسط العدالة وهذا يدل على النزاهة والشفافية في تنفيذ القوانين، فالفرعون كان المشرع الوحيد ومصدر القانون ، عبد المصريون الفرعون وجعلوه إلها يجب طاعته ، فكانت إطاعة أوامره واجباً دينياً مقدسا[1].

كما عبد المصريون القدماء آلهة تمثل الظواهر الطبيعية ، كالشمس والقمر والرياح والأمطار والخصب وغيرها، وبذلك تعددت الآلهة كبقية الأقوام القديمة الأخرى وتغير اسم الإله بتغير العصور في مصر ففي عصر الدولة القديمة كان الإله (رع) اله الشمس ، وفي عصر المملكة الوسطى صار الإله (أمون) وقد دفع هذا التعدد بالآلهة ، الملك امنحتب الرابع (أخناتون1367 ق.م إلى توحيد الآلهة في إله واحد هو (أتون) المتمثل بقرص الشمس وغير امنحتب اسمه فصار يسمى (أخناتون) أي محبوب قرص الشمس، وكان المصريون يعتقدون بالحياة ما بعد الموت ، ويعتمد خلود الإنسان حسب اعتقادهم على تقواه وصلاح أعماله ، فمن كانت أعماله صالحة وحفظ التعاليم والإرشادات الدينية نجا من العذاب ووهبت له الآلهة الحياة والخلود في الآخرة ، لذلك حنطوا الجسد لكي يحفظ ويبقى سليماً للحياة الثانية وكذلك اهتم المصريون ببناء المعابد والمقابر لتكون مكاناً للعبادة وحفظ الموتى كما اهتموا ببناء الأهرامات الضخمة لدفن الفراعنة وتميزت عمارة الأهرامات بالحصانة والدقة الهندسية واستخدام الحجارة الكبيرة[2].

[1] ف. دياكوف ، س . كوفاليف ، الحضارات القديمة ، المرجع السابق ، ص : 147.
[2] المرجع نفسه ، ص : 147.

واستخدم المصريون القدماء الخط الهيروغليفي (الخط المقدس) للتدوين في أوائل الألف الثالث ق.م وكانت بدايته علامات صورية على غرار الخط المسماري العراقي الذي سبقهم في ذلك غير أن المصريين استعملوا ورق البردي مادة للتدوين في حين أن العراقيين القدماء استخدموا ألواح الطين، وقد برع الكهنة بتدريس الكتابة الهيروغليفة في المدارس التابعة للمعابد كما دون المصريون القدماء الخط الهيروغليفي على جدران المعابد، والمقابر والمسلات والقصور ، وتعتمد الكتابة المصرية القديمة على الصورة لتدل على الشيء نفسه ثم تطورت وصارت الصورة ترمز إلى مقطع لفظي ، وبذلك صارت العلامات تدل على المقاطع أو الحروف[1] .

[1] مهران محمد بيومي ، دراسات في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، المرجع السابق ، ص : 218.

المبحث الثاني : بلاد ما بين النهرين

حضارة بلاد الرافدين هي منطقة جغرافية تاريخية تقع في جنوب غرب آسيا، ومعنى كلمة بلاد الرافدين هو بلد النهرين ، كانت من أولى المراكز الحضارية في العالم ،و هي تقع حاليا في العراق ما بين نهري دجلة و الفرات ، وأشهر حضاراتها هي سومر و أكاد و بابل و آشور و كلدان و التي نشأت في العراق، وعرفُ القسم الجنوبي من العراق القديم باسم «سومر» والذي سكنه السومريون وشيدوا فيه القرى والمدن وبنوا فيه البيوت والمعابد، وشقوا القنوات والترع من نهري دجلة والفرات لسقي الأراضي الزراعية ، ثم أقاموا علاقات تجارية مع المناطق المجاورة لهم ولاسيما مع مناطق الخليج العربي ، التي كانوا يصدرون إليها منتجاتهم الزراعية مثل: الحبوب والسمن والجلود ويستوردون منها المعادن مثل النحاس والفضة والذهب والأحجار الكريمة[1].

و بدأ فجر الحضارة في العراق بحدود سنة 5000 قبل الميلاد وانتهى بالحقبة الزمنية التي ابتدع فيها الإنسان العراقي الكتابة لأول مرة في تاريخ الإنسانية في الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد، وإن نشوء الحضارة الناضجة في بلاد الرافدين قد سار بخطوات ثابتة وعلى مراحل وبأطوار متعاقبة ، عرفت تلك الأطوار في العراق للمختصين المحدثين بأسماء المدن والقرى والمواقع التي ظهرت فيها لأول مرة, ومدن الطور الأقدم هي: (حسونة) ثم (سامراء) و (حلف) و (العبيد) و (الوركاء) و أخيرا (جمدة نصر)، لقد شهد العراق خلال هذه الأطوار اتساع الزراعة و بداية الحياة الحضرية و نشوء أولى المدن ، وعرف بناة الحضارة أيضا فن التعدين وابتدعوا دولاب الخزاف وصنعوا الآجر المفخور والعربة ذات العجلة وكذلك المحراث فضلا عن السفن الشراعية ، وعرف في أوائل تلك الأطوار أيضا فن النحت، وظهرت كذلك المباني العامة كالمعابد حيث كثرت وازدادت أهميتها منذ طور (العبيد)، وعرف طور الوركاء (3500 ق.م.) بالعهد الشبيه بالكتابي، ومن المعروف أن الكتابة قد أرسيت قواعدها تماما خلال الطور الذي أعقبه وهو (جمدة نصر) في حدود سنة 3000 ق.م[2].

---

[1] ف. دياكوف ، س . كوفاليف ، الحضارات القديمة ، المرجع السابق ، ص : 85.

[2] حلمي محروس أسماعيل ، الشرق العربي القديم وحضارته " بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة " ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية – مصر ، 1997 ، ص : 09.

من الأمور المتفق عليها بين غالبية العلماء المختصين في العصر الحاضر أن السومريين هم سكان العراق الأصليون، وأنهم الذين كانوا يعرفون بأصحاب حضارة العبيد في وسط وجنوب العراق وكانت أراضيهم تمتد جنوبا إلى جزيرة دلمون (البحرين) في العصر الحاضر قبل أن ترتفع مناسيب الخليج العربي ليصل إلى حدوده الحالية، ولغة السومريين، وهم أصحاب أقدم حضارة أصيلة متطوّرة في العالم، من اللغات التي تعرف بالملتصقة.Agglutinative من خصائص الإلصاق فيها أنه كثيرا ما يدمج مفردتين لتصبحا كلمة واحدة يستند معناها إلى معاني الكلمات الداخلة في تركيبها، مثل (لوكال) أي الملك المكونة من (لو) أي الرجل و (كال) أي العظيم، و (إي-كال) تعني القصر أو الهيكل مكونة من كلمة (إي) وهي البيت و(كال) العظيم، ثم أن الجمل فيها تتألف أيضا بطريقة إلصاق الضمائر والأدوات إلى جذر الفعل بحيث يصير الجميع كلمة واحدة [1].

ثم بدأ عصر فجر السلالات في العراق في حوالي سنة 2800 ق .م، واستمر لمدة ستة قرون والذي يعرف أيضا بالعصر السومري القديم أو بعصر دويلات المدن حيث لم تتوحد البلاد بعد تحت مملكة كبيرة واحدة، و قسم علماء الآثار عصر فجر السلالات إلى ثلاثة أطوار: الأول (2800 – 2700 ق.م.) والثاني (2700 - 2600 ق.م.) والثالث(2600 - 2400 ق.م.)، وإن لكل من هذه الأطوار الثلاثة خصائصها المميزة، ومع ذلك يمكن القول عموما بأن فن العمارة قد قطع شأوا بعيدا في هذا العصر وبخاصة في بناء القصور والمعابد فظهرت العقود لأول مرة في البناء وكذلك القبوات كوسيلة في التسقيف، وتقدم فن التعدين وسبك المعادن، وقطع فن النحت شأوا بعيدا من التقدم،كما نضجت الكتابة وانتشر استعمالها في العصر السومري فدونت بها في عصر فجر السلالات السجلات الرسمية وأعمال الملوك والأمراء وعلاقتهم بغيرهم من الحكام، وكذلك شؤون الناس العامة كالمعاملات التجارية والأحوال الشخصية والمراسلات والآداب والأساطير فضلا عن الشؤون الدينية والعبادات[2].

---

[1] سامي سعيد الأحمد ، العراق في كتابات اليونان والرومان ، مجلة سومر ، ج1-2 ، م 26 ، بغداد – العراق ، 1970 ، ص : 114.

[2] شارل سنيوبوس ، تاريخ الحضارات العالم ، تر : محمد كرد علي ، مطبعة الظاهر بالقاهرة ، القاهرة – مصر ، ص : 27.

انتهى عهد فجر السلالات بقيام سرجون الأكدي (2371-2316 ق.م.) بتوحيد العراق في مملكة واحدة ، كان سرجون من الأكديين وهم فرع من الأقوام التي نزحت من الوطن الأم شبه جزيرة العرب إلى العراق ربما في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل ، وليس من المستبعد أن الأكديين قد عاشوا جنبا إلى جنب مع السومريين منذ أقدم العصور وعرف القسم الأوسط والجنوبي من العراق منذ ذلك الزمن باسم بلاد (سومر وأكد)، "خلال فترة حكمه التي دامت خمسة وخمسين عاما أدخل مؤسس الأسرة الأكدية الملك سرجون الكثير من الإصلاحات على نظام الحكم والجيش، وتطور في عهده فن العمارة" حيث حكم مؤسس السلالة الأكدية سرجون خمسة وخمسين عاما أدخل خلالها الكثير من الإصلاحات على نظام الحكم والجيش بما في ذلك تطوير أساليب الحرب والسلاح ، وكذلك حصل تقدم عظيم في العمارة والفنون بعامة التي تميزت في العصر الأكدي بالقوة والحيوية والحركة ، ويعد (نرام – سين) أقوى ملوك السلالة الأكدية الذي حكم زهاء أربعين عاما[1].

عمّ الاضطراب في المملكة أواخر العهد الأكدي, فقد حكم بعد نرام – سين ملوك ضعاف مما شجع الأقوام الجبلية وهم الكوتيون، الذين عرفوا في النصوص المسمارية القديمة بأعداء الآلهة، على غزو بلاد (سومر وأكد)، إن حكمهم الذي دام حوالي مائة سنة كان عهدا مظلما كادت أن تنقطع فيه عنا أخبار العراق القديم، وقد عوض عن ذلك ازدهار الحضارة في جنوبي العراق وبخاصة في مدينة (لكش) وما يجاورها ، وقد اشتهر من بين الأمراء السومريين في أواخر هذا العهد أمير أو ملك اسمه (جودية) الذي عرف بتماثيله الكثيرة التي وصلتنا والذي عمل على إحياء الآداب السومرية وتشييد العديد من المعابد الفخمة[2].

---

[1] تقي الدين الدباغ ، العراق في التاريخ " العراق في عصور ما قبل التاريخ "، بغداد – العراق ، 1983 ، ص ص : 25- 30.

[2] ليو اوبنهايم ، بلاد مابين النهرين ، تر : سعدي فيض عبد الرزاق ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، ط2 ، بغداد – العراق ، ص ص : 51 – 52.

ثارت على الكوتيين مدينة (الوركاء) بقيادة أميرها السومري (أوتو –حيكال) الذي لقّب نفسه بملك (سومر وأكد) وأهاب بأهل البلاد لحرب الطغاة الأجانب، فالتّفت حوله المدن وتمكن من القضاء على جموع الكوتيين الكبيرة وخلص البلاد منهم ، ثم انتقل الحكم السومري بعد ذلك إلى مدينة (أور) وتكونت فيها سلالة عرفت بسلالة (أور الثالثة) أسسها الملك (أور– نمو) الذي تعد أيامه من عهود العراق المجيدة وآخر عهد في حياة السومريين السياسية (2113-2006ق.م.)، ولقد استطاع ملوك هذه السلالة الخمسة أن يعيدوا إنشاء إمبراطورية واسعة على غرار الإمبراطورية الأكدية شملت جزءا كبيرا من أقاليم الشرق الأدنى، وانتشرت مع التجارة والفتوح حضارة العراق القديم تماما كما كان عليه الحال في العصر الأكدي، لقد اشتهر ملوك هذه السلالة بأعمالهم العمرانية الفذّة وامتازت دولتهم بالتنظيم وحسن الإدارة في الداخل والخارج وأصبحت العاصمة (أور) في زمنهم قبلة الشرق القديم ليس من النواحي العمرانية والفنية والاقتصادية فحسب بل إنهم سنّوا الشرائع بحسب العرف الاجتماعي و وحّدوا الشؤون القضائية في البلاد[1].

وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد قامت في العراق أسرة حاكمة جديدة عرفت بسلالة بابل الأولى (1894 – 1595ق.م.) اشتهرت بملكها السادس حمورابي (1728 – 1686ق.م.) الذي جمعت في شخصه خصالا فذة جعلت منه القائد والسياسي والمصلح والمشرع فاستطاع بهذه الخصال أن يوحّد البلاد [2]، ثم وقعت حرب ضروس بينه وبين الدخلاء العيلاميين أظهر خلالها حمورابي من حسن التدبير والحزم ما مكّنه من تمزيق جموعهم شر ممزق، ومدّ فتوحه بعد ذلك إلى شمالي بلاد الرافدين وإلى جهات الهلال الخصيب الأخرى، ومن أعماله المهمة سنّ شريعة واحدة تسري أحكامها في جميع أنحاء المملكة عرفت بقانون حمورابي التي تعد من أولى الشرائع المتكاملة في العالم حيث تجمع بين القانونين المدني

---

[1] طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج1 ، دار الوراق ، لندن ، 2009 ، ص ص : 279 – 280.
[2] المرجع نفسه ، ص : 281.

والعقوبات فضلا عن الأحوال الشخصية، كما أن أهم ما تميّز به العصر البابلي القديم اتساع المدن وكثرتها، كما حدث تطوّر مهم في العلوم والمعارف البشرية حيث انتقلت من أطوارها العملية إلى طور التدوين والبحث بحيث يصح أن نعد بداية ظهور العلوم البشرية الحقة كانت في هذا العصر ، ليس هذا فحسب بل إن الحضارة من بلاد الرافدين قد أخذت طريقها في العصر البابلي القديم إلى جميع أنحاء المشرق وإلى أطراف العالم القصية[1].

ولقد غزت العراق في أواخر العصر البابلي القديم أقوام جاءت من الشرق أو من الشمال الشرقي عرفوا بالكشيين ، أسسوا سلالة حاكمة جديدة دام حكمها زهاء خمسة قرون ، وقد عرف هذا العهد بالعصر البابلي الوسيط الذي يعد من العصور المظلمة في العراق ، لم يخلف لنا الكشيون وثائق أو سجلات تاريخية بلغتهم الأصلية وإنما استعملوا لغة بلاد بابل، ويبدو أنهم قد تخلّوا عن ديانتهم التي كانوا عليها ليعتنقوا الديانة البابلية ، وقد أسسوا في منتصف عهدهم عاصمة جديدة قرب بغداد الحالية عرفت باسم (دور– كوريكالزو) أي مدينة الملك الكشي كوريكالزو[2].

وصادف قيام السلالة الكشّية نمو المملكة الآشورية في القسم الشمالي من العراق حيث ''أقام الآشوريون مملكتهم في شمالي العراق، ونازعوا الكشيين زعامة البلاد السياسية'' فبدؤوا ينازعون الكشيين زعامة البلاد السياسية ، والآشوريون فرع من الأقوام الجزرية التي هاجرت في الأصل من شبه جزيرة العرب، وهناك نظرية أخرى مفادها أنهم جاؤا من جنوب العراق من أرض بابل وحلّوا في شمالي بلاد الرافدين في زمن لعله في العهد الأكدي ومما يدعم ذلك أنهم يتكلمون بلهجة من اللهجات البابلية ، ويرى غالبية المختصين أن اسمهم مشتق من اسم معبودهم الإله (آشور)، يمكن وضع تاريخ الآشوريين في ثلاثة عهود: القديم والوسيط والحديث[3].

---

[1] اوتو ادزارد ، عصر فجر السلالات " الشرق الأدنى – الحضارات المبكرة ، تر : عامر سليمان ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل – العراق ، 1986 ، ص : 97.
[2] طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، المرجع السابق ، ص : 295.
[3] زياد عويد سويدان المحمداوي ، التطورات السياسية في بلاد الرافدين " العهد الأشوري الوسيط " ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 2003 ، ص : 25.

وتدخل فيه حقب طويلة لاسيما إذا أدمجنا فيه عصور ما قبل التاريخ ، لقد بدأ الآشوريون في هذا العهد ببناء مملكة قوية موحدة مستقلة ، ظهر منهم ملوك أقوياء مثل (إيلو – شوما) الذي عاصر مؤسس سلالة بابل الأولى وكذلك شمشي أدد الأول (1814 – 1782 ق.م.) الذي بلغت المملكة في زمنه من القوة ما مكّنها من فرض سلطانها على القسم الشمالي من بلاد بابل، ودأب الآشوريون على تنمية كيانهم السياسي، تعرضوا فيه إلى سلسلة من الامتحانات والمصاعب بسبب ضغط الدول والأقوام التي كانت تجاورهم، خرجوا من كل ذلك أشداء أقوياء إذ خلقت منهم قوة عسكرية رهيبة فرضت سلطانها على شعوب العالم القديم لعدة قرون تلت، ويعد شلمنصر الأول (1266 – 1243ق.م.) من أعظم ملوك هذا العهد سيما في حقل التوسع والفتوح الخارجية بعد أن توطدت شؤون المملكة الداخلية في عهده، ولقد تدهورت الأوضاع الآشورية في أواسط القرن الثامن قبل الميلاد انتهت بثورة قامت بها مدينة (كالح) الآشورية على الملك (أشور – نراري) الخامس ، فقتل وتولى زمام الأمور تيجلاتبليزر الثالث (745–727ق.م.) الذي بدأ عهدا جديدا في تاريخ الآشوريين تكونت فيه آخر وأعظم إمبراطورية آشورية حيث صارت فيه مجددا سيدة الشرق القديم[1].

كان من أعظم إنجازاتها توحيد بلاد بابل وآشور في مملكة واحدة، يعد الملك سرجون الثاني (727 – 705 ق.م.) واحدا من أعظم ملوك هذه الحقبة ليس فقط بسبب إنجازاته الفنية والمعمارية العظيمة والتي كان منها تشييد عاصمة جديدة قرب نينوى أطلق عليها اسم (دور شروكين) أي مدينة سرجون والتي تعرف خرائبها بـ (خرساباد) في الوقت الحاضر، كما عرف بفتوحاته الخارجية العظيمة منها القضاء على المملكة اليهودية الشمالية (السامرة) بسنة 721 قبل الميلاد وترحيل الكثير من سكانها إلى أماكن أخرى داخل حدود الإمبراطورية الآشورية ، وكذلك قضاؤه على التحالف بين الفراعنة والدويلات الصغيرة في فلسطين وسوريا، وكان المصريون قد أرسلوا جيشا قويا لمساعدة قوات التحالف[2].

---

[1] المرجع السابق ، ص ص : 26 – 28.

[2] جميل نخلة المدور ، تاريخ بابل و آشور ، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ، القاهرة – مصر ، 2012 ، ص : 65.

فتصادم الجيشان قرب مدينة رفح تمخّضت عن اندحار قوات التحالف وفرار القائد الفرعوني، كما يعدّ آشوربانيبال (668-626ق.م.) من أكثر ملوك هذا العهد ثقافة فقد أغرم بالأدب والمعرفة فجمع الكتب من أنحاء البلاد وخزنها في دار كتب وطنية خاصة شيّدها في عاصمته نينوى جمع فيها مختلف أصناف العلوم والمعارف التي بلغتها حضارة العراق والتي عرّفتنا بنواحي الحضارة العراقية القديمة المختلفة [1].

العهد البابلي الحديث آخر العهود العراقية الزاهرة في العصور القديمة (626-539ق.م.)، ويعد حكم نبوخذنصر الثاني (604-562ق.م.) بحق من العهود المجيدة في التاريخ البشري عموما وفترة انتعاش قوية عاشتها الحضارة البابلية، فلم تسجل الكتابات التي خلفها هذا الملك إلا أخبار البناء والتعمير في جميع مدن العراق المهمة، ومن أعماله العمرانية الرئيسة كان بناء الزقورة وتشييد عدد كبير من المعابد الفخمة في بابل، وكان من جملة إنجازاته في هذا الميدان أيضا إقامة شارع رائع عرف بشارع الموكب ومدخل مهيب ضخم يدعى بباب عشتار، يقع وراء هذا الباب قصره الفخم بجنائنه المعلّقة الذي عرف في المصادر اليونانية بإحدى عجائب الدنيا السبع[2].

وفي زمنه أعلنت دولة (يهودا) الصغيرة العصيان مع عدد من الدويلات الشامية الصغيرة الأخرى بتحريض من الفراعنة التي لم تكترث لنصائح النبي (ارميا) وتحذير ملكها (يوهوياقين) بوخامة العاقبة، فجرد نبوختنصر حملة تأديبية لم تقو (يهودا) على مقاومتها فسقطت العاصمة (أورشليم) في عام 596 ق.م، فرحّل قسم من سكانها ومعهم ملكهم عن فلسطين[3] ،ونصّب نبختنصر بدلا عنه عمه (صدقيا)، وبعد بضع سنوات اشتركت (يهودا) في عصيان جديد وبتحريض من الفراعنة أيضا الذين حاولوا استرجاع مكانتهم في سوريا وفلسطين، لقد كان غضب الملك البابلي في هذه المرة عظيما فدمّر المدينة وأحرق الهيكل ورحّل من سكانها عددا كبيرا جدا إلى العراق واضعا بذلك حدا لمملكة يهودا، لقد

---

(1) جميل نخلة المدور ، المرجع السابق ، ص : 71.
(2) أحمد أمين سليم ، تاريخ العراق – إيران – أسيا الصغرى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية – مصر ، 2000 ، ص : 297.
(3) ديلابورت ، بلاد ما بين النهرين ، تر : محرم كمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1997 ، ص : 17.

وقع ذلك الحدث بسنة 594 ق.م، و خلف هذا الملك العظيم عدد من الملوك الضعاف وبخاصة آخرهم نبونائيد (555-539 ق.م.) فتدهورت الأوضاع في البلاد خلال عهودهم وانتهت تلك الإمبراطورية العظيمة بسقوط بابل على يد (كورش) ملك الإخمينيين بسنة 539 ق.م، وليعفى على حضارة العراق وتطمر علومه وأمجاده لقرون طويلة تلت ، وإذا انتقلنا إلى نشوء أولى الحضارات في العراق القديم يمكن القول إنها كانت بجهود العراقيين الأوائل في تفاعلهم مع البيئة الطبيعية في وسط وجنوبي العراق، فمن المعروف أن الزراعة تعتمد في هذا الإقليم دوما على الإرواء الصناعي الذي كان لا يتم إلا بالسيطرة على الأنهار وإقامة السدود وتجفيف الأهوار، إن الري -كما هو معروف- كان الدعامة الأساس في الحياة الاقتصادية لهذا الإقليم وعلى ذلك فقد تجلّت عبقرية الإنسان هنا بأجلي مظاهرها في الإرواء الصناعي وإن نشوء أول حضارة في بلاد الرافدين قد تحقق بلا أدنى ريب بعد أن سيطر سكان هذا الإقليم على الأنهار فيها وذلك عن طريق إقامة السدود وحفر الأنهار والجداول وتجفيف الأهوار، فذللوا البيئة الطبيعية واستغلوا إمكاناتها العظمى، وليس هذا فقط بل استغل العراقيون الأقدمون ارتفاع مناسيب نهر الفرات قياسا إلى دجلة فشقوا أنهارا عظيمة من الفرات إلى دجلة لتروي أراضي واسعة كانت بأحوج ما تكون إلى الماء، لقد طغت أخبار شق الأنهار والجداول على غيرها من أخبار الملوك وأعمالهم، إن حفر أو شق نهر جديد كان يعد بحد ذاته حدثا هاما يؤرخ به الكتبة الرسميون للدولة الأحداث الجسام[1].

نتيجة لكل هذا نلاحظ أن أول شيء يلفت النظر في العراق شهرة البلاد الزراعية إلى الأزمان المتأخرة، حتى أن الكتاب اليونان – مثل هيرودوتس– قد تحدثوا عن وفرة المحاصيل الزراعية في هذا الإقليم، وهو ما يذكرنا بتسمية المؤرخين والبلدانيين العرب لأرض العراق بـ (السواد) لكثرة زرعها وخضرتها ، ومن الأمور المتفق عليها إن فن زراعة البساتين نشأ في العراق مما ساعد الإنسان كثيرا على الاستقرار ومن ثمّ نشوء الحضارات المتقدمة وتطوّرها ، والنخلة -على ما يرجح- كانت أقدم وأهم شجرة في تاريخ العراق الزراعي القديم حيث اختص العراق بزراعة النخيل منذ فجر التاريخ[2].

[1] ديلابورت ، المرجع السابق ، ص ص : 18- 25.
[2] عصفور محمد أبو المحاسن ، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم (من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر) ، المرجع السابق ، ص ص : 230 – 231.

وكانت العادة أن تزرع الفراغات بين النخيل بالأشجار المثمرة الأخرى مثل التين والرمان والتفاح والكروم وغير ذلك، وما يزال يعد أعظم وأوسع مركز لزراعة النخيل في العالم لاسيما المنطقتين الوسطى والجنوبية منه وفي سبيل تحقيق الاستقرار والأمن في البلاد، وللحفاظ على هذه المنجزات والمكاسب العظيمة كان من الضروري وجود حكومات قوية مستقرة[1].

وكان الملك في العراق القديم على رأس السلطة حيث عدت سلطته التنفيذية والتشريعية مستمدة بشكل مباشر من الآلهة لحكم البلاد، فهو الذي كان يتولى قيادة الجيش وقت الحرب حيث أن من أولى واجباته المحافظة على حدود الوطن، وكذلك توفير الوسائل الكفيلة التي تساعد البلاد على الرخاء الاقتصادي عن طريق تنفيذ المشاريع الحيوية العامة مثل حفر القنوات والأنهار وبناء المعابد تقرّبا إلى الآلهة، ولقد خلّف الكثير من الملوك العراقيين القدماء مآثر كتابية أكدوا فيها ما ذكرناه حتى أن بعضهم قد صوّر نفسه وهو يحمل سلال التراب والآجر رمز قيامه بتنفيذ المشاريع العمرانية الكبرى وبخاصة بناء المعابد تقربا للآلهة، والكثير منهم قنّنوا الشرائع والقوانين في سبيل تنظيم الحياة العامة ونشر العدل بين الرعية، ''تعتبر الشرائع المدونة في العراق هي الأقدم في تاريخ العالم ويلاحظ أنها دونت بأسلوب علمي وبلغة قانونية دقيقة'' ، ومن الأمور المعروفة للجميع أن أولى الشرائع المدّونة في العالم قد ظهرت في العراق القديم، وهناك من الإشارات ما يدل بشكل قاطع على ظهور القوانين المدونة في عصور فجر السلالات، إن الشرائع في العراق القديم لم تكن أولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية فحسب بل إنها دوّنت بأسلوب علمي وبلغة قانونية دقيقة، إنها قوانين بهيئة مواد متسلسلة مقتصرة على الشؤون المدنية لا تتعرض للعبادات في شيء[2].

وكان من تمسّك سكان العراق الأقدمين باحترام القانون والنظام أن تصوروا الكون كله على هيئة مملكة تحكمها الآلهة يتجلى فيها مبدأ الطاعة وبخاصة طاعة القوانين والسير بموجب أنظمة المجتمع وأعرافه

---

(1) عصفور محمد أبو المحاسن ، المرجع السابق ، ص : 233.

(2) حلمي محروس أسماعيل ، الشرق العربي القديم وحضارته " بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة " ، المرجع السابق ، ص ص : 100 – 101.

الشفهية والمدونة، وبلغ من تقديرهم لفضيلة الطاعة أنهم تخيّلوا ظهور عهد ذهبي بين البشر في يوم ما تسود فيه الطاعة والنظام وسيادة القانون، ومن ثمرات الحضارة الناضجة نشوء الصناعات الأولى وكذلك التجارة وبخاصة التجارة الخارجية لجلب المواد الخام التي اعتمدت عليها تلك الصناعات، ومن البديهي أن يصاحب كل ذلك تقدم العلوم والآداب والفلسفة، وفي العراق القديم بدأت أولى المحاولات الفلسفية الجريئة الخاصة بأصل الكون والوجود والأساس في مكونات المادة، ومن المؤكد أن السومريين قد سبقوا الفلاسفة الإغريق بقولهم بمبدأ العناصر الأربعة الأولية التي عدت أصل جميع الأشياء[1].

ومن البديهي أن يولي العراقيون القدماء أيضا الأدب الكثير من اهتمامهم ، لقد كان شأنه شأن الآداب العالمية القديمة الأخرى يشرك الآلهة في الملاحم والقصص أو الأساطير، أما الشعر السومري والبابلي فقد كان يخضع لفن خاص من النظم والتأليف فهو موزون ولكنه غير مقفى، إنه من النوع المعروف في الوقت الحاضر بالشعر المرسل، وما خلفه لنا العراقيون القدماء من الروائع الأدبية أكثر من أن تحصى، ربما أهمها (ملحمة جلجامش) و (قصة الخليقة) و (قصة الطوفان) وعدد كبير جدا من الأساطير، وفي باب العلوم الصرفة كالرياضيات مثلا عرف البابليون أسسا مهمة في خواص الأعداد وكذلك في العمليات والطرق والمعادلات الجبرية الأساسية، و من ذلك مثلا معادلات الدرجة الأولى بأنواعها المختلفة فضلا عن معادلات الدرجة الثانية والثالثة، كما اتبعوا في طرق حلها عمليات مدهشة لا تكاد تصدق لتطابقها مع الطرق العلمية الحديثة ، ومما يقال اليوم بوجه عام إن الفضل في تقدم الجبر الحديث يعود إلى البابليين والعرب أكثر مما يعود إلى اليونان[2].

ومن الأمور المتفق عليها أيضا في تاريخ المعارف البشرية أن البابليين هم الذين أسسوا علم الفلك الرياضي، وبدؤوا يدونون ملاحظاتهم وإرصاداتهم أو حساباتهم الفلكية منذ العهد الأكدي، وتقدم هذا العلم إلى درجة كبيرة مذهلة في العهد البابلي القديم، أما معرفتهم بالعلوم الطبيعية مثل علم الكيمياء، على سبيل المثال وبخاصة ما يتعلق منها بخواص المواد وتأثير الحرارة فيها أو العوامل الطبيعية الأخرى فقد بدأت عندهم في وقت مبكر جدا[3].

---

(1) حلمي محروس أسماعيل ، الشرق العربي القديم وحضارته ... ، المرجع السابق ، ص: 103.
(2) عصفور محمد أبو المحاسن ، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم... ، المرجع السابق ، ص : 242.
(3) المرجع نفسه ، ص : 248.

المبحث الثالث : الصراع السياسي

كان الشعب المصري أبدا لم يزل بعد فرحا لا يهتم خاضعا خانعا أشبه بالطفل المستسلم إلى ظالمه ، وكانت العصا في هذه البلاد أداة التربية والحكومة حتى كان أعوان الملك يقولون " خلق ظهر الفتى ليضرب فهو لا يمتثل الأمر إلا إذا ضرب " ذكر أحد السياح الفرنسيين أنه كان واقفا ذات يوما أمام خرائب ثيبة فهتف قائلا "كيف بنوا كل هذا ،فاستضحك دليله وقال ماسكا بيده مشيرا إلا نخلة : بهذه بنوا هذا أجمع" اعلم أنه إذا كسرت مئة ألف سعفة من سعف النخل على ظهر من أكتافهم عريانة أبدا تبنى قصور كثيرة ومعابد ، كما أن قلما خرج المصريون من بلادهم لما أنهم حاذروا ركوب البحر ولذلك لم يكن لهم ملاحة و ما اتجروا والشعوب الأخرى ولم تعرف لهم بحرية إلا بعد الأسرة السادسة والعشرين ، وما كانوا أمة حربية قط[1].

ولقد قاد ملوكهم الجند في حروبهم واتخذوا القتال دينهم فبعثوا البعوث إلى زنوج الحبش تارة وإلى القبائل السورة ثارة أخرى ، فإذا غلبوا صوروا صورة النصرة على الجدران قصورهم ، ومتى ولوا راجعين من غزاتهم يأتون بالأسرى فيستخدمونهم في بناء المعاهد على أنهم ما أحرزوا قط نصرا مؤزرا ولا فتحوا فتحا مبينا[2].

كان انتقال الحكم من الأسرة الثانية عشر إلى الأسرة الثالثة عشر هادئا ، وأول ملوك الأسرة الثالثة عشر هو سخم رع خوتاوي ، وكانت مملكة ممتدة من الدلتا شمالا إلى الشلال الثاني جنوبا ، ووجدت بإقليم الشلال الثاني نقوش لمقاسات مياه النيل في الأربع السنين الأولى من الحكم هذا الملك ، وعلمنا أيضا أن قلعة تلك الجهة قامت عليها حامية ، وأن رسوم وضرائب الأملاك جمعت من الوجه البحري كالمعتاد ، ولكن هذه الحال لم تدم طويلا لأن خلفاء هذا الملك كانوا أقل همة وكياسة من ملوك الأسرة

[1] عبد العزيز صالح ، حاضر مصر وأثرها ، ج1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة – مصر ، 1992 ، ص : 108.
[2] المرجع نفسه ، ص : 109.

الثانية عشر ، لكنهم مع ذلك نسبوا أنفسهم إليهم وسموا بأسمائهم ، والظاهر أن الملك انتقل وراثيا بين يدي الملوك الأربعة الأول لهذه الأسرة، وبعد ذلك اغتصبه المدعو يوفي (Yufni) كما ورد في درج تورين البردي ، وهذه الرواية كثيرة الاحتمال لأن هذا الاسم ضعيف الشبه بأسماء ملوك الأسرة الثالثة عشر الأول وبالأسماء الملكية المعتادة ، فاتضح لنا أن هذا الغاصب تغلب على صاحب الحق الملكي وقتئذ وهو أمر كثير في الشرق على اختلاف العصور[1].

على أثر ذلك عمت الفوضى في البلاد وقامت المنازعات الشخصية بين حكام الأقسام رغبة في الملك والجاه ، فنجح بعضهم أحيانا ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية لكنه لم يمكث طويلا فكان يتبعه شخص آخر ، ومن هؤلاء الملوك اثنان يسميان سِبِكِمسَاف شيدا لأنفسهما هرمين صغيرين بطيبة ، وقد ذكر أحد هذين الهرمين في نصوص الرمسيسيين حيث ورد أنه فتش فوجد مسروقا وذلك بعد وفاة صاحبه بخمسمائة سنة تقريبا ، وحقق أمر هذه السرقة وقتئذ وألقى القبض على اللصوص فأقر هؤلاء بجريمتهم أوضحوا كيفية سلبهم لحلى جثة الملك وجثة الملكة المدعوة نوب خاس وكيفية الاستيلاء على الأحجية والأحجار الكريمة بهما ، واستدل من الأوراق التحقيق أن بعض الملوك الأسرة الثالثة عشر اتخذ طيبة مقرا للحكم وأنهم كانوا طيبين في الأصل ، وجاء أيضا أن أحد الغاضبين المدعو نِفِر حوتِب عزل أحد الملوك الملقبين باسم سِبِك حوتِب وتبوَّأ الملك محله وأعلن هذا الأمر جهارا وسجله على الآثار ذاكرا اسم والديه غير المنتميين للبيت المالك ، وترك أيضا نصوصا على أثر بالعرابة أشار فيها إلى عنايته العظيمة بمعبد أزوريس وبالمدينة نفسها ، لكن هذا الملك لم يحكم سوى إحدى عشر سنة ثم توفي فتبنه في الملك ابنه المدعو سي حاتحور ، وهذا لم يدم طويلا لأنه ترك عرشه لعمه المدعو نِفِر خَارَع سِبِك حُوتِب أكبر ملوك هذه الأسرة [2].

---

[1] شارل سنيوبوس ، تاريخ حضارات العالم ، المرجع السابق : 60.
[2] مجدي صادق ، التاريخ الحقيقي لمصر القديمة ، دار جامعية ، ط1 ن الإسكندرية – مصر ، 2002 ، ص : 217.

وما جاء عن هذا الملك أنه مد حدود مملكته الجنوبية إلى جزيرة أرجو جهة الشلال الثالث وقد ظهر لنا الآن أن هذا خطأ لأن تمثال هذا الملك الذي وجد بجهة أرجو والذي يمثله بحجمه الطبيعي نقله إلى تلك الجهة ملك نوبي أتى بعده ، وعلى كل فحكم هذا الملك كان مقرونا بالرخاء والرقي بالنسبة لأحكام سائر ملوك الأسرة الثالثة عشر الآخرين[1].

بعد ذلك أتى عهد امتاز بقلة أخباره ومعلوماته يظهر أن الأحوال البلاد الداخلية كانت في أثنائه سيئة للغاية ، ويظن أن أحد النوبيين استولى وقتئذ على عرش المملكة المصرية ، وبصرف النظر عن قيمة هذا القول من الصواب فقد كتب هذا النوبي كلمة نحسى التي تعني " الزنجي " داخل خانة ملكية أشار إلى نفسه ، وورد أيضا اسم ملك آخر من تلك العصور لقبه مرمشو (Mermesho) أي أمير الجيش ، اعتلى العرش وكان على ما يظهر قائدا للجيش ثم اغتصب الملك بقوته ومركزه الحربي ، وفي ذلك الوقت عمت الفوضى في البلاد وساد سوء النظام فيها فانقسم القطر إلى عدة أقسام صغيرة مستقلة أكبرها جنوبا قسم طيبة ، وقد اهتدينا إلى أمر ملكي لأحد ملوك ثلاثة مدعوين باسم إِنتِف ولقبه نوب خِبر ورع إِنِف ، جاء فيه أنه عزل حاكم مدينة فقط لثبوت خيانته للملكة ، ويعتبر هذا دليلا ساطعا على سوء أحوال البلاد الداخلية وقتئذ ، ومما قاله الملك في أمر هذا العزل " إن كل ملك أو حاكم يتولى إدارة القطر المصري يستحق اللعنة إذا أظهر شفقة أو عطفا نحو أي خائن لبلاده " ، ووجد في طيبه هرمان لاثنين من الملوك ملقبين إنتف بقيا إلى عهد الأسرة العشرين ، وورد عنها في الآثار الرمسيسية أن أحد الهرمين سرقته اللصوص وتوصلوا إلى دخوله بحفر نفق أرضي ، ولا تحتوي الآثار المصرية إلا النادر من الأسماء الملكية الكثيرة التابعة للأسرة الثالثة عشر الوارد ذكرها ضمن قرطاس تورين البردي ، وأغلب آثار هؤلاء الملوك عمارات صغيرة أو تماثيل أو جعل حقيرة ، ويرجع ذلك إلى عدم وفرة القوة والمال والوقت الكافي للقيام بالآثار الخالدة ، ولا غرابة في ذلك فقد كان الملوك يتبدلون بسرعة حتى استحال على أحدهم إقامة آثار كبيرة أو كثيرة تستنتج منها بعض المعلومات عن سلطان البلاد وإدارتها وقتئذ[2].

[1] مهران محمد بيومي ، دراسات في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، المرجع السابق ، ص : 179.

[2] عبد العزيز صالح ، الأسرة المصرية في عصورها القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة – مصر ، 1988 ، ص : 153.

وتركت مصر سياسة اللامبالاة الخارجية في عهد شبتكا (جد كاورع – من خبر رع) ابن بيعنخي ، ويبدو أنه لم يكن في وسعها ، على الرغم من متابعتها ، أن تبقى منعزلة طويلا عن العالم الخارجي بعد أن قلب الأشوريون موازين القوى فيه رأسا على عقب ، فما أن انتهى عهد سرجون حتى انفجر الشام في ثورة عارمة ضد الاحتلال الأشوري ، وكان ممن تطلعوا إلى عون مصر ميناء صور الفينيقية ، دولة يهوذا وملكها حزقيا ، وبعض المدن الفلسطينية والبدوية ، وكان حزقيا ملكا عاصره النبي إشعيا ، وكان على عكسه من دعاة الخضوع لآشور والتباعد عن محالفة مصر فأعنتها مصر ، ليس حبا فيها ، بقدر رغبتها في اتخاذ ساحتها موقعا من مواقع تعويق التوسع الآشوري ، وأجدت عاصمتها أورشليم بجيش كان على رأسه طاهرقا بن بيعنخي ، وكان من أفذاذ الحرب رغم صغر سنه بحيث قيل أنه لم يتجاوز حينذاك العقد الثاني من عمره ، ولكن خصمه الأشوري سينا خريب بن سرجون كان أعنف وكان جيشه أكثر عددا وعدة[1].

وباستخفاف المقتدر أرسل سينا خريب رسوله الرابشاق إلى أهل أورشليم في عام 701 ق.م ،ليصرفهم عن حزقيا وحليفه الفرعون المصري ، بل وعن رب يهوذا كذلك ، محتجا بان ملكهم حزقيا قد مرق عن دينهم بإزالة العوالي والمذابح التي أقامها أسلافه ، وأنه لا أمل لهم في مصر التي نخرت المشاكل كيانها وأوهنتها ، فضلا عن أن أرباب الأرض جميعا لم يستطيعوا أن ينقذوا بلادهم من آشور ، أما الخاتمة فاختلفت فيها روايات الفريقين ، فادعت نصوص الأشوريين الانتصار المؤزر على المدينة وحلفائها ، وروت أن حزيقا اضطر تحت وطأة الحصار وعم توفيق النجدة المصرية ، وانفضاض أتباعه من حوله ، إلى أداء الجزية مضاعفة إلى نينوى ومعها وفد من بناته وحظاياه وموسيقيه[2].

(1) شارل سنيويوس ، تاريخ الحضارات العالم ، المرجع السابق : 67.
(2) المرجع نفسه ، ص : 69.

ولكن روت التوراة أن الجيش الأشوري حل به الموت الإلهي وحام ملك يهوه فوقه ليلا ، وفي بكرة الصباح أصبحوا جثثا هامدة ، فارتد الملك الأشوري مدحورا بخزى الوجه إلى أرضه بعد أن أصبح جيشه كالعصافة في مهب الريح ، وتحدث هيرودوت عن المصريين فروى أن ملك مصر باعتباره الكاهن الصالح للإله بتاح هيفايستوس قد أحزبه الأمر واعتمد على عون ربه ، أكثر مما اعتمد على مجهود الجنود الذين كان منهم عدد كبير من الصناع والتجار ، وفي عشية الموقعة سرت أسراب هائلة من الجرذان في معسكر الأشوريين ، فمزقت الجعاب وقرضت أوتار القسي وسيور الدروع ، فأصبحوا بلا عدة يعتد بها وتفرقوا مغلوبين على أمرهم من أهون المخلوقات ، وذهب بعض الرأي إلى توفيق بين قصتي التوراة وهيروديوت بان الجرذان أفشت وباء الطاعون بين الأشوريين فهلك خلق كثير منهم وأوهن الباقين فانسحبوا ، وإن كان توقيت هذه الحاثة لا زال يتراوح بين عام حصار أورشليم في هذه المرة ، وعام تخريب سينا خريب لمدينة لاشيش (لخيش) الفلسطينية ، ومحاولته الوصول إلى الحدود المصرية بعد أحد عشر عاما في عام 690 ق.م[1].

وتكرر تأييد مصر لحلفائها في الشام خلال عهد طاهرقا (خو نفرتم رع) حينما استأثر بالعرش ، لاسيما مدينة صور التي استعصت على الأشوريين فترة طويلة ، وفي سبيل التفرغ للمشكلات الشمالية ، ترك طاهرقا نباتا لنائبه فيها ، وعهد بطيبة لواليها المحلي حليفه المصري منتومحات ، واستمد من آمون سندا لمقاومة أعدائه ، وكان أهم ما قدمه لأمون خلال عهده الذي كان أطول عهود حكام العصر ، استمر 26 عاما ، هو الصرح الخارجي الكبير الذي لازال يتقدم أهم معابده في الكرنك ، والسور الضخم الذي يحيط بها ، وتعددت آثاره أكثر من سابقيه في مصر ونباتا ، ثم ركز اهتمامه السياسي في عواصم الشمال ، لاسيما منف وتانيس واستقر في هذه الأخيرة استعدادا للانطلاق منها إلى الشمال الشرقي ، حيث الشام وآشور حين تتهيأ الأسباب أو تدعو الضرورة[2].

---

[1] عصفور محمد أبو المحاسن ، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم (من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر) ، المرجع ، ص : 175.

[2] عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم " مصر والعراق " ، المرجع السابق ، ص : 752.

وباكرت حضارة بلاد الرافدين في العهد الذي باكرت في الحضارة المصرية ، وما برح أمر هذه الشعوب مستور عن الأنظار مجهولة حقيقتهم على أرباب الأفكار على انه من المأمول ، أن يظفروا بكتابات جديدة في الأماكن الكثيرة التي لم تتناولها الأيدي بالحفر واستخراج الدفائن ، وبعد فقد دعت هذه الأمم نفسها بالأشوريين والسومريين والأكاديين وانقرض ملكهم حوالي 2300 ق.م[1].

فطر الأشوريين على حب الصيد والحرب وأن نقوشهم لتمثلهم مدججين بالأقواس والرماح راكبين صهوات الخيول بحيث صاغ أن يصفوا أبائهم كحماة المجال وأبطال يحسنون الكر والفر ، وان استوي في أعينهم رواحهم إلى مناوشة ومغداتهم في الحرب ، ولقد عرفوا بالخيانة وسفك الدماء فوطئوا آسيا ستة قرون وخرجوا من جبالهم يغيرون على جيرانهم ، ولطالما آبوا من غزواتهم وقد أسروا شعوبا بأجمعها ، والظاهر أنهم يناشبون غيرهم القتال لمحض حب القتل والسفك والتدمير والنهب فإنهم أشد خلق الله بأسا وأقساهم قلوبا[2].

وقد جاء في بعض الفقرات من نشرات الحروب ، قال أسروا نازير هابال عام 882 : أنني عمرت جدارا أمام أبواب المدينة العظمى وسلخت جلود عظماء الثورة وغطيت هذا الجدار بجلودهم وقد دفن بعضهم أحياء في أساس البناء وصلب فريق آخر وجعلوا على أوتاد في الحائط وسلخت جلود الكثيرين في حضرتي وكسوت الحائط بها وجمعت رؤوسهم على هيئة التيجان وضممت جثثهم إلى أشكال الأكاليل ، وكتب توكلا بالازاز عام 745 ما نصه : حبست الملك في عاصمته ورفعت كوما من الجثث أمام الأبواب ، هدمت مدنها كلها ودمرتها وأحرقتها وأقفرت البلاد وصيرتها آكاما وقاعا صفصفا ينعق فيها يوم الخراب[3].

---

[1] طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، المرجع السابق ، ص : 133.
[2] عصفور محمد أبو المحاسن ، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ....، المرج السابق ، ص : 211.
[3] المرجع نفسه ، ص : 212.

وقال سنحاريب في القرن السابع : " انطلقت كالعاصفة المدمرة فسبحت السروج والأسلحة في الدماء الأعداء كأنها في نهر وتراب مبلل وجمعت جثث جندهم كما تجمع الغنائم وبترت أطرافهم وهشمت عظام من أخذتهم أحياء على نحو ما نقصف التبنة وقطعت أيدهم عقابا لهم بما جنت أيدهم "، هذا وقد صورت في إحدى النقوش التي تمثل مدينة سوس وهي ترد إلى عهد أسوربانيبال وشوهدت فيها الرؤوس المغلوبين يعذبهم الأشوريون وقد صلمت آذان بعضهم وسملت أعين الآخرين ونتفت لحاهم ، وهناك رجل يسلخ جلده وهو حي مما دل على أن أولئك الملوك كانوا يرتاحون إلى ما يتم على أيديهم من الحرائق والمذابح والعذاب[1].

بدأت هذه الطريقة في الحكم في القرن الثالث عشر زمن الاستيلاء على بابل ، وظل الأشوريون منذ القرن التاسع يسرحون الحملات وسنون الغارات حتى أخضعوا وإن شئت قل خربوا بلاد بابل وسورية وفلسطين ومصر وكانوا المغلوبين يثورون في غضون تلك المدة بلا انقطاع والمذابح قائمة على ساق وقدم ، ثم ضعفت قوى الأشوريون واتحد البابليون والماديون فقلبوا عرش مملكتهم نينوى عاصمة بلادهم سنة 625 وهي المدينة التي سماها الأنبياء بني إسرائيل (عرين الأسد) ومدينة الدم والغنيمة فتيسر الاستيلاء عليها وخربت فلم تقم لها قائمة بعد ، قال النبي ناحوم (خربت نينوى فمن يشفق عليها يا ترى ؟)[2].

وأراد الحاكم الجديد تيجلات بيليسر أن يثبت قوة شخصيته ،وأن ينتشل آشور من وهدته ، فاتجه بفتوحه إلى حيث اعتاد الملوك العظام من قبله ، وبدأ ببابل القريبة منه فهيمن عليها بعد مشقة وعهد بأمرها إلى صنيعة له يدعى نابو نصر ، ثم اتجه بجيوشه إلى سوريا وبعد حروب عامين استعاد أغلبها للنفوذ الأشوري ، وأراد أن يعقب على لك بمواجهة سارديون أمير أورارتو ، لكن دمشق التي خضعت له أعلنت ثورة عنيفة ضده عام 793 ق.م[3].

(1) حلمي محروس أسماعيل ، الشرق العربي القديم وحضارته ... ، المرجع السابق ، ص: 142.
(2) شارل سنيويوس ، تاريخ الحضارات العالم ، المرجع السابق : 31.
(3) حلمي محروس أسماعيل ، المرجع السابق ، 145.

فأصبح يضرب بجيوشه في الجهتين واستطاع من بلدانها أن يوهن أورارتو ، ولكنه كان أكثر ضرابا في الشام ، وذكرت نصوصه من بلدانها إلى جانب الأسماء القديمة التي رددتها نصوص أسلافه ، أسماء عسقلان و مؤاب وغزة التي لجأ حاكمها إلى مصر ، ثم تدخل في مشكلات العبرانيين وعين عليهم هوشع ملكا بعد أن خلعوا ملكهم ، وجعله صنيعة له بينهم[1].

وإلتف الرجل إلى بابل مرة أخرى ، وكانت قد شهدت تنافسا مسلحا على عرشها ، بعد وفاة نابو نصر العميل الآشوري فيها ، وظهر من أشد المتنافسين على عرشها آنذاك مردوك أبال إدين الثاني الذي ذكرته التوراة باسم مرداك بالادان ، فانحطت جيوش تيجلات على المتنافسين وأجبرت مردوك أبال إدين على الفرار ، وخضعت بابل للحكم الأشوري المباشر ، ثم تقلد تيجلات تاجها وخلع على نفسه ألقاب ملوكها و لاسيما لقب ملك سومر وأكد[2].

قامت مكان مملكة الأشوريون الداثرة مملكة البابليون أو المملكة الكلدانية الثانية ، وقد تكلم أحد الأنبياء إسرائيل على لسان الرب فقال " أنا أحي الكلدان تلك الأمة الظالمة وسرعان ما تطوف الأرض للاستيلاء على مساكن غيرها وإن خيولها لا خف سيرا من النمر وفرسانها لينتشروا في الأطراف ويطرون كالنسر ينقض على قنيصته " ، وبالجملة فقد ألف البابليون الفروسية والحرب والفتح وهم يماثلون الأشوريون كل المماثلة فاستولوا على بلاد الفرس وبلاد اليهود وسورية وكانت مدة حكمهم قصيرة فقد أنشئت المملكة البابلية سنة 625 وأبادها الفرس سنة 531 ق.م[3].

---

[1] سبتينو موسكاتي ،الحضارات السامية القديمة ، تر : يعقوب بكر ، دار الكتاب العربي للطبعة والنشر ، القاهرة – مصر ، ص : 72.
[2] المرجع نفسه ، ص : 74.
[3] ديلابورت ، بلاد ما بين النهرين ، المرجع السابق ، ص : 122.

المبحث الرابع : الصراع الديني

قلما احتاجت أمة في محنتها إلى حاكم قوي احتياج مصر إليه بعد موت أمنحتب الثالث ، ومن دواعي الأسف أنها رزقت في هذه المنحة بملك خيالي فيلسوف لا يليق لمكافحة الخطر الذي يتطلب رجلا ذا شيم قوية ومواهب حربية كبيرة مثل تحوتمس الثالث ، وليس يخاف أن أمنحتب الرابع ابن أمنحتب الثالث والملكة تي كان قويا شجاعا في بعض الأمور لكنه عجز عن فهم خطورة الحال في أمور الأخرى ، وقد ألمعنا سابقا إلى الخطر المحدق الذي اعترض هذا الملك عند ما جلس على العرش المصري ، ذلك الخطر المركب الذي تطلب خبرة ومهارة بالأمور الأسيوية وأخلاق أهلها وملوكها ، لكنه لم ينظر إلى ذلك الخطر إلا من الوجه الفلسفية لأنه كان محاطا وقتئذ بأمه تي وزوجته نفرتتي (Nofretete) التي يغلب أنها من أصل أسيوي ، وكذا الكاهن المحبوب آي (Aye) زوج مرضعته ، والمرجح أن الملكتين تي ونفرتتي استعملتا من النفوذ ما جعل لهما مركزا كبيرا في سياسة الدولة ، فكان أمحنتب الرابع كثيرا ما يظهر لرعيته مصحوبا بزوجته وأمه أكثر مما فعله والده قبله[1].

والظاهر أن آراء هذا الملك الفلسفية وتخيلاته العالية العظيمة التي مزيته على سواه من الملوك قابلت صدرا رحبا من الملكتين تي ونفرتتي ، ومن ذلك يتضح لنا أن المملكة المصرية التي كانت في أشد الحاجة إلى رجل سياسي محنك قادر على تسهيل مصاعبها رزقت بملك شاب كثير التعلق بكاهن وبملكتين عظيمتي المواهب الفكرية ، ومن دواعي الأسف أن هؤلاء الأخلاء الثلاثة لم يفهموا مليكهم خطورة الحالة وما يقتضيها حلها من الاستعداد والإسراع ، فبدلا من أن يحشد الملك الجيوش ويرسلها إلى بلاد النهرين التي كانت أشد الحاجة إليها انغمس في الأمور الدينية والفلسفية قلبا وقالبا ضنا منه أن ذلك أهم بكثير من المحافظة على جميع المستعمرات الأسيوية ، ومن ثم أصبح لهذا الملك مركز ظاهر وشخصية بارزة بين ملوك العالم على توالي الأجيال وصار أعظم الفراعنة فلسفة وأكبر الملوك شخصية مدى التاريخ البشري[2].

[1] عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم " مصر والعراق " ، المرجع السابق ، ص : 476 .
[2] المرجع نفسه ، ص : 477.

وبديهي أن علو شأن الإمبراطورية المصرية وارتفاع منزلتها بين العالم يقتصر على مظاهر الحياة الخارجية كالعادات والأخلاق والثروة و إتقان الحرف ووسائل الجمال ، بل شمل أيضا رقي الفكر وحدة الذهن ، ومعلوم أن هذا الرقي والتقدم الفكري كان متجها غالبا منذ أقدم العصور إلى الأمور الدينية لا إلى الأمور الدنيوية ، وقد شاهدنا أعراض هذا التقدم بين كهنة مصر قبل غزو مملكتهم للبلاد الأسيوية فقد فسروا معبوداتهم وقتئذ بأساليب خرافية وفلسفية كما فعل اليونان في أواخر تاريخهم وأوجدوا المعاني والمجازات الفلسفية لتلك الخرافات مما لم يكن معروفا في العصور الغابرة[1].

إن كهنة مصر نحلت صفات الإله لمعبوداتها الكثيرة ، فكهنة منف مثلا اعتقدوا أن بتاح خالق الكون الأعظم ، كما أن كهنة طيبة نسبوا إلى معبودهم آمون ألوهية هذا العلم وحجتهم في ذلك أن آمون معبود الدولي الرسمي ، أما كهنة عين شمس فنسبوا خلق هذا الكون لمعبودهم قائلين أن فراعنة مصر أبناء الشمس (رع) وورثته على الأرض ، ولما كانت معبودات أقسام مصر الأخرى معتبرة صورا لرع نسب كهنة هذه المعبودات المتعددة تأليف هذا الكون لآلهتهم ، لكن مركز رع كان امتن من مركز المعبودات الأخرى خصوصا وأن آمون لم يستول مرة على مركز رع السامي في القطر ، زد على ذلك أن المكاتبات الرسمية لا تزال تبدأ كما كانت من قديم الزمان بالدعاء للمعبود رع خرخوتي (Re – Hararkhte) ،ويستدل من حكايات القوم وقتئذ أنهم اعتقدوا أن رع خرخوتي هو حاكم هذا الكون[2].

ومع هذا كله لم يميز معبود في عهد الإمبراطورية على سواه استثناء اللهم إلا إذا اعتبرنا أن رع كان له بعض التميز بالنسبة لشدة نفوذ كهنته ، لكنه لما أتى عهد أمنحتب الثالث ظهر على الآثار اسم قرص الشمس القديم وهو آتون مستعملا بدل رع بعد ما كان مهمل الاستعمال ، وقد شوهد هذا الاسم

---

(1) جيمس هنري برستد ، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، تر : حسين كمال ، مكتبة مدبولي ، ط2 ، القاهرة – مصر ، 1997 ، ص : 318.

(2) المرجع نفسه ، ص : 319.

بكثرة في نصوص ذلك العهد الدينية ، من ذلك أن أمنحتب الثالث سمي سفينته التي ساح بها على بحريته الجميلة " أشعة آتون " ومعلوم أيضا أن بعض حرسه الخاص كان ينتسب اسميا إلى آتون ، ويرجح أن هذا الملك شيد معبدا لآتون بعين شمس وأن بعض معاصريه اعتبروا آتون (أي قرص الشمس) " المعبود الواحد " الذي لا شريك له[1].

ومن المؤكد أن فرعون مصر وقتئذ قاوم مصاعب كبيرة في نشر مذهبه الديني ، فقد تحتم عليه أن يخوض غمار معارك دينية هائلة مع طائفة الكهنة القوية ذات التاريخ القديم ، كل هذا حصل في عصر كانت فيه العقائد الدينية أهم ما يحافظ عليه الإنسان في ديناه ، ولقد مضى أمنحتب الرابع في طريقه بلا تردد ولا وجل فنشر مذهبه تحت اسم آتون مدعيا جهرة أن هذا الاسم هو أحد أسماء المعبود رع وإليك ترجمة ما قاله بخصوص هذا المذهب : " ها هي ذي كلمات رع أمامك ..... لقد علمني والدي العظيم معناها الحقيقي ففهمها قلبي وعرفها وجهي ففقهتها أنا ....." [2].

بهذه الكيفية أسند الملك مذهبه إلى رع مدعيا أنه هو الذي أظهر سر هذه الديانة وجعل نفسه " كاهن آتون الأكبر " متبعا في ذلك سنة وجود كاهن رع الأكبر " بعين شمن " لكن يلاحظ أنه على الرغم من وجود بعض العلاقة بين مذهب أخناتون وعبادة رع فإن الأول تعدى اختصاص الثاني بديل ما جاء على الآثار من استعمال آتون بمعنى " الإله " أو " المعبود " الذي يقابله في اللغة المصرية القديمة لفظ " نتر " (Nuter) ، وجاء أيضا أن الإله شيء والكوكب الشمس شيء آخر ، وهو ما يفسره ترجمة آتون الواردة على الآثار : " أن المعبود هو حرارة الشمس (آتون) "[3].

---

(1) عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم " مصر والعراق " ، المرجع السابق ، ص : 479 .
(2) حسين نعمة ، موسوعة ميثولوجيا وأساطيل الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة ، دار الفكر اللبناني ، بيروت – لبنان ، 1994 ، ص : 94.
(3) عبد العزبر صالح ،المرجع السابق ، ص : 451.

نعم إن أخناتون وفلاسفة اليونان الأقدمين جهلوا تماما التأثير الطبيعي والكيميائي الذي لأشعة الشمس على الكون والذي نعرف نحن الآن ، لكن هذا لا ينفي أن مذهب أخناتون مؤسس على دعامة صادقة مثمرة ، والمعروف أن إله أخناتون كان مخالفا لما اعتده الأهالي وقتئذ لكنهم لم يصعب اعتناق المذهب في سائر أنحاء الإمبراطورية وفهم معانيه ، وهو في الحقيقة أيسر فهما من معرفة معاني رموز المعبودات المصرية القديمة الصعبة الإدراك للغاية ، واختار أن يقيم معبد آتون في حديقة آمون التي أنشأها والده بين معبدي الكرنك والأقصر ، فبنى هناك معبدا كبيرا شامخا وحلاه بالرسوم الزاهية البارزة ، ثم أطلق على طيبة اسم " مدينة نور آتون "كما أطلق على المعبد المذكور " نور نتون العظيم " ، وسمي قدس الأقداس بذلك المعبد " جِم آتون "[1].

ومع إباحة عبادة المعبودات الأخرى وقتئذ أضمر كهنة أمون الحقد والطمع وتملكهم الضغينة لما رأوا جزءا عظيما من أوقاف معبدهم حول إلى معبد آتون الذي أخرجه أخناتون إلى الوجود ، زد على ذلك أنهم منعوا من التدخل في الشؤون السياسية بعد ما كان رؤساؤهم يعينون في عهد أمنحتب الثالث رؤساء لمالية الدولة كرئيسهم المدعو بتاح موس (Ptahmose) الذي عين في منصب وزير الدولة الأكبر ، وقد حصل مثل هذا الرقي لكهنة آمون في عهد الملكة حتشبسوت لما قام رئيس كهنة أمون كان معتبرا رئيسا لطائفة كهنة الدولة ، ويرجح أن هذا التدخل الكهنوتي العظيم في شؤون الإمبراطورية السياسية هو الذي شدد عزيمة أخناتون على انتزاعه من هذه الطائفة ن وعلى كل حال فان الملك لم يكن البادئ بذلك فقد سبقه والده أمنحتب الثالث إليه بان عين وزيرا لم يكن رئيسا لكهنة آمون خلفا للوزير بتاح موس ، فلما أتى أخناتون كان الوزير الجديد المدعو رع موس (Ramose) في مركزه فأغدق أخناتون عليه الهدايا الجزيلة ،لذلك انضم هذا الوزير إلى الملك وفؤاده المفعم بالإخلاص كما انضم إليه غيره من كبار الدولة فعهد إليهم الملك في الإشراف على بعثة الأحجار اللازمة لبناء معبد آتون[2].

[1] عبد العزبر صالح ،المرجع السابق ، ص : 451.
[2] جيمس هنري برستد ، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، المرجع السابق ، ص ص : 320- 321 .

لكن طائفة كهنة أمون كانت قوية وغنية حتى أنها مرة عينت تحوتمس الثالث ملكا لمصر بنفوذها ، فلا يستبعد حينئذ أن يتحين أفرادها مثل هذه الفرصة فيعزلون هذا الفيلسوف الشاب ويكيدون له بدون تردد ، قد يكون هذا حقيقيا لكن المعروف أن أمنحتب الرابع لم يكن فردا عاديا بل كان سليل بيت المجد والشرف صعب المراس قوي عنيدا صلب الإرادة ، وقد وجد له معاضدين كثيرين مثل كهنة منف وعين شمس الذين شجعوه على القضاء على عبادة أمون التي لم تعرف في شمال مصر إلا منذ عهد المملكة الوسطى ، على أثر ذلك تولد النزاع الذي أدى إلى حرب انتهت بسحق أمون[1].

[1] حسين نعمة ، موسوعة ميثولوجيا وأساطيل الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة ، المرجع السابق ، ص : 98.

كان الدين هو العامل المسيطر في كل ركن من أركان الحياة الإنسانية ،وكانت نظرة أرض الرافدين إلى الأدب والقانون والفن هي نضرة الشرق الأدنى كله قديما ، فلم يكن ينظر إلها إلا في نطاق الدوافع الدينية ، فكان الدين خلاصة القيم الإنسانية أما التأمل الفلسفي المستقل والإبداع الفني فلم يتيسر إلا بعد ذلك على يد اليونان ، فآلهتها السامية هي إلى حد كبير آلهة سومرية تقبلها الغزاة المنتصرين مع بعض التعديل ، هذا إلى أن الآلهة البابلية والأشورية نفسها امتزجت وتفاعلت بعد ذلك بعضها ببعض بتغير الأزمان واختلاف الأحوال السياسية في أرض الرافدين ، و قد كان الناس في بلاد مابين النهرين يعتقدون أن من يفعلون الخير ، ويتمسكون بالأخلاق الطيبة تكافئهم الآلهة بالسعادة وطول العمر والثروة وكثرة الأولاد ، وتحميهم من الأخطار المختلفة[1].

كانت خصائص الآلهة شبيهة بخصائص الإنسان لا تختلف عنها إلا في كونها أكثر كمالا وتجريداً وثيابها أبهى من ثياب الأمراء، وصراعها كصراع الناس، وأبرز الآلهة تتجسد في الثالوث الأسمى الذي يتكوّن من السماء متجسّمة في الإله "آنو" ، والهواء متجسماً في الإله "أنليل" والأرض متجسّمة في "انكي" أو "أيا"،وكان هناك ثالوث آخر من أجرام سماوية هي الشمس والقمر وكوكب الزهرة " نجم الصباح"، وتطوّر الدين فصار لكل إله نجمه الخاص ، وبتقدّم علم التنجيم زادت عبادة النجوم،وكان "أدد" إله العاصفة في مظهرها اللين من مطر وفيضان ، أو في مظهرها العنيف والمدمّر من برق وإعصار، وكانت النار تُعبد أيضا في شخص الإله "نسكو"، وكانت الدورة الطبيعية في حياة النبات وخصوبة الأرض تبجّل أيضا في شخص الإلهة "عشتر" التي كانت رمزاً للأرض الأم ، وقد نشأت حولها أساطير كثيرة داخل أرض الرافدين وخارجها، وكانت عشتر أيضا إلهة الحروب والمعارك ، يرتبط بها الإله "تموز"، وهو ذو إلهية إنسانية معاً، يرمز إلى حياة النبات الذي يموت ويولد كل عام ، وظهرت آلهة قومية الطابع مثل الإله "أشور" في أشور والإله "مردوك" في بابل ، تخضع له بقية الآلهة وتساعده في مهمته وهي خلق الكون وتدبيره[2].

---

[1] ف . فون .زودن ، مدخل إلى حضارات الشرق القديم ، تر : فاروق إسماعيل ، درا الثقافة للنشر والتوزيع ، دمشق – سوريا ، 2003 ، ص : 190.

[2] رشيد عبد الوهاب حميد ، حضارة وادي الرافدين – ميزوبوتاميا – دار الثقافة ، دمشق – سوريا ، 2004 ، ص : 89 .

كما كانت الحياة اليومية في بابل وأشور يظللها الخوف من الشياطين التي كانت في الغالب أرواحاً شريرة، صعدت من جوف الأرض، وكان بعضها أرواح الموتى الذين لم يُدفنوا في القبور، وكانوا ينتقمون لأنفسهم على مصيرهم التعس بمهاجمة البشر ومضاعفة الكوارث، وكانت الخطيئة أقرب الطرق التي يستطيع بها الشيطان دخول جسم الإنسان، وكانت الخطيئة أنواعاً مختلفة كإهمال الطقوس الدينية والسرقة والقتل ، ولم يكن هناك تمييز بين الذنوب الخلقية والذنوب المتعلقة بالطقوس الدينية ، وكان الإنسان إذا أذنب ينبذه الإله فتنتهز الشياطين هذه الفرصة للدخول في جسمه ، لذا كان من الطبيعي أن يقوم الطب لعلاج المرضى بطرد الشياطين ، وكان يتولى هذه المهمة كاهن متخصص يسمى "آشب" ، أي المعوذ وذلك بالرقي والأعمال السحرية والتعاويذ التي تتطلبها الحالة،وكان قوام عملية التعويذ تلاوة عبارات سحرية مع أداء طقوس معيّنة،وكانت المراسم تبدأ بدعاء للآلهة يصف الكرب الذي يعانيه الآثم وأمله في الغفران ، وكان يرشّ على المريض ماء مقدّساً وتُلقى قطع من اللحم حتى يُمسك بها الشيطان فيفك قبضته عن جسم المريض[1].

حيث كانت هناك طائفة من الكهنة يسمى الواحد منهم "بارو" عليهم تفسير إرادة الآلهة والتنبؤ بها ، تلك الإرادة التي تقرر مصير الأمور في هذا العالم ، وكان التنبؤ يتمّ بخاصة من خلال فحص كبد الحيوان ، فقد كان البابليون والأشوريون يعلّقون أهمية خاصة على هذا العضو، وإلى جانب المعوّذ والعرّف،نجد الكاهن "كالو" المكلّف بأداء الطقوس الجنائزية وإنشاد المراثي، وكان الموتى يُدفنون في توابيت من الخزف ، أو في حصائر من القصب، وكانت توضع إلى جانبهم أشياء أو مؤن مختلفة باعتقادهم وإيمانهم بحياة أخرى بعد الموت، ولكن بدون إبراز لفكرة الثواب والعقاب وتعكس بوجه عام نظرة سلبية متشائمة إلى الحياة الآخرة ، فكان المعتقد أن روح الإنسان ، بعد الموت، تُنقل من القبر إلى العالم السفلي "أدلو" وفيها يعيش الموتى عيشة حزينة كئيبة[2].

---

(1) فاضل عبد الواحد علي وآخرون ، جوانب من حضارة العراق " العراق في التاريخ " دار الحرية ، بغداد – العراق ، 1983 ، ص : 211.

(2) فاضل عبد الواحد علي ، من سومر إلى التوراة ، ط2 ، سيا للنشر والتوزيع ، القاهرة – مصر ، 1996 ، ص ص : 79 – 81 .

أما القرابين فكانت تقدّم للتكفير عن الذنوب، أو لاكتساب رضا إله، أو لتدشين معبد جديد، أو تمثال جديد...وكانت القرابين في الغالب من الحيوانات ، تحرق أجزاء منها للإله ، وأجزاء أخرى تؤول إلى الكهنة ويُردّ الباقي إلى صاحب القربان ، وكانت الأعياد الدينية هي أعياد الآلهة، يشارك فيها الناس بالمسرات والطقوس ، ومن أبرزها عيد العام الجديد في بابل، فيه يعلن الملك خضوعه للإله[1].

كما أن أساطير وملاحم وادي الرافدين عكست لنا الكثير من الجوانب الواقعية الهامة لحياة المجتمع العراقي القديم ويومياتها بما فيها الفكر الديني والعقائدي والفكر الاجتماعي، و تعتبر أسطورة الاينوما ايليش مادة خصبة للكثير من التحليلات والأفكار عن العالم القديم ومعتقداته فهي تتضمن صراع مفاهيم عقلية وفلسفية، أسطورة الاينوما ايليش لا تشير مطلقا إلى مرحلة أكدية بل هي حصرا ضمن المرحلة البابلية منذ بداياتها الأمورية وحتى أفولها على يد الأشوريين ، وكان للصراعات السياسية تدخل واضح في نوعية العبادة حيث كانت إلهة الدولة المنتصرة تسود على غيرها وتتزعمهم، وتتوارى وتزول إلهة الدولة المنهزمة وتعتبر هذه إلهة خائنة لشعبها ، مثل مردوخ الذي أصبح كبير للإلهة في عصر البابليين بعد إن كان الشأن لانليل وانو وانكي، والاهم من هذا وذاك إن الأدهى في المعتقدات الرافدينية وعموم ديانات الشرق الأدنى القديم هو عدم الاعتقاد ببعث ونشور وقيام وإنما مقر الجسد القبر حتى يبلى والروح تنتقل إلى عالم الأرواح العالم السفلي وتخلد فيه إلى الأبد[2].

وفي المعتقدات القديمة تظهر الآلهة وهي تتصارع مع أقرانها، هذا الصراع الذي يفسر عادة كصراع بين قوى الطبيعة أحيانا، أو يشير إلى نهاية عبادة بعض الآلهة وظهور أخرى تتميز عادة بكونها آلهة فتية، ففي بلاد الرافدين نقرأ عن الصراع الذي اندلع بين الآلهة العتيقة، والآلهة الفتية الذي انتهى بهزيمة تيامة ومقتلها على يد مردوك اله بابل الفتي، وفي أساطير اوغاريت نقرأ عن صراع بين بعل وموت اله العالم السفلي إذ يقتل موت بعل وينقله معه إلى مملكته فيمتنع سقوط المطر، وتذبل الحقول الخضراء، وتستمر حالة الجدب حتى تنزل زوجته عناة وراءه إلى العالم الأسفل للبحث عنه فتلتقي بخصمه فتقطعه بمنجلها،

(1) فاضل عبد الواحد علي ، من سومر إلى التوراة ، المرجع السابق ،ص : 81.
(2) Myriam Philibert ، Dictionnaire Des Mythologies، Brobar a Taupin، France، 2002، p: 251 -252 .

ثم تنشر أعضاء جسمه المقطعة في الحقول فتعود الحياة من جديد إلى بعل في فصل الربيع، وتخضر الأرض، وفي أسطورة أخرى نعرف أن بعل يحاول أن يسيطر على الأرض بعد معارك دامية مع خصومه، وتبدأ الأسطورة بقرار الإله الأعظم ايل منح بعض سلطاته على البحار، والأنهار للإله يم فيغضب الإله بعل ويضمر في نفسه الحقد والحسد، فتنشب بينه وبين يم معركة ضارية ينتصر فيها بعل بمساعدة قوشار اله الفنون والصناعات الذي جهزه بأحسن الأسلحة، ولكن على الرغم هذا النجاح لم يستطيع أن يفرض سلطانه على الأرباب الآخرين فطلب من الآلهة عناة التوسط لدى الآلهة الكبرى عشترات لإقناع زوجها ايل بالسماح لبعل بتشييد معبد على الجبل المقدس في الشمال البلاد، وافقت عشترات على رجاء بعل وأقنعت زوجها بضرورة بناء المعبد ورضي ايل، وشيد قوشار معبدا ضخما لبعل جهزه بأحسن الأثاث ثم دعا بعل جميع الآلهة إلى مأدبة طعام احتفالا بهذه المناسبة السعيدة فأصبح سيد المجمع المقدس [البعليم][1].

وما كاد بعل ينعم بنشوة النصر حتى ظهر له منافس آخر هو موت اله العالم الأسفل، واله القحط ، إذ حاول موت الخروج من مكانه الحزين المعزول في العالم الأسفل لاغتصاب المنصب الجديد الذي حصل عليه بعل في رئاسة المجمع الإلهي ولتحقيق هذه الغاية دعا بعل إلي وليمة أقامها في العالم الأسفل ليأكل من طعام الموتى، فإذا أكل في هذا المكان فلا يمكن له الرجوع إلى الأرض ولما حضر بعل الوليمة، وأكل الطعام وقع في الفخ، وبقي مسجونا في العالم الأسفل مدة من الزمن فحزنت عناة على اختفاء زوجها بعل ، ولكن بعل بعث مجددا وبدأت معركة حقيقية مع الإله موت انتهت بانتصار بعل، ونفي موت إلى أسفل الأرض إلى الأبد، وساهمت عناة في هذه المعركة ، والواقع إن نقاط التشابه واضحة بين ملحمة الخليقة البابلية وأسطورة صراع بعل مع يم، إذ إن في الأسطورتين يقوم اله شاب بدحر قوى الماء، ومثلما كان سلاح بعل البرق كان سلاح مردوك هو البرق أيضا[2].

---

[1] ف . فون .زودن ، مدخل إلى حضارات الشرق القديم ، المرجع السابق ، ص : 216.
[2] ، المرجع نفسه ، ص ص : 217 – 218 .

وتعتبر ملحمة جلجامش من أقدم الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات ، ورغم أن هذه الملحمة ترجع إلى أصول سومرية إلا أنها نظمت في الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق.م ويعود الفضل في نظمها إلى البابليين الذي شكلوا منها ملحمة متكاملة شملت العديد من المواضيع في مقدمتها لغز الحياة والموت وما بعد الموت والخلود، فهي تمثل الصراع ما بين إرادة الإنسان في البقاء،وبين حقيقة الموت البديهية حتى بالنسبة لجلجامش لأن ثلثيه من الآلهة والباقي من البشر ،كان جلجامش ملكا وسليل ملوك ، ولد في قصر ملك أوروك وعند ولادته اجتمع كل الآلهة ليمنحوه الصفات العالية،لقد أعطوه جسدا كاملا " شمش "إله العواصف،وهبه الشجاعة ، الآلهة العظام جعلوا جسده كاملا يفوق الجميع، مخيفا كالثور البري ، جعلوه بثلثيه إلها وثلثه بشري[1].

وتبدأ الملحمة بذكر مآثر جلجامش ومنجزاته العمرانية في مدينة الوركاء،وبوصف قوته الخارقة،لذلك تضرع أهل الوركاء إلى الآلهة لتخلق غريما لجلجامش ليحد من تعسفه فاستجابت الآلهة لدعوات السكان، فخلقت أنكيدو المتوحش الذي يعيش مع الحيوانات، وقد رآه أحد الصيادين فقص على أبيه ما رأى فطلب منه والده أن يخبر جلجامش ويقدم له فتاة بغيا لكي يغوي بها أنكيدو ولترويضه ومن ثم استدراجه للوركاء لجأ جلجامش إلى هذه الوسيلة واستطاعت الفتاة أن تستحوذ على عواطف أنكيدو التي استطاعت أن تقنعه بالعدول عن حياة البراري والذهاب معها إلى الوركاء ، وعند وصول أنكيدو إلى مكان الاحتفال اشتبك البطلان جلجامش وأنكيدو واستمر الصراع بينهما فترة من الزمن ، وكانت النتيجة أن تغلب جلجامش على خصمه ، وأصبح بعدها البطلان صديقين حميمين لا يفترقان[2].

وبعد أن أصبح البطلان صديقين عزم جلجامش على القيام بحملة إلى غابات الأرز لتخليد اسمه والترفيه عن صاحبه ومواجهة حارس الغابة العفريت خمبابا ، وأخذ جلجامش يعد العدة للقيام بالرحلة فجهز الأسلحة ، وأخذ موافقة مجلس الشيوخ ، ثم طلب بركة أمه الآلهة وبعد سفر شاق وطويل بلغ غابة الأرز وشرع جلجامش يقطع أشجار الأرز فسمع العفريت خمبابا ذلك فهاج وهجم عليهما ، فكاد أن

[1] طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ، دار الحرية ، بغداد – العراق ، 1976 ، ص : 99.
[2] فاضل عبد الواحد علي ، عامر سيلمان ، تاريخ العراق القديم ، ج2 ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد – العراق ، 1980 ، ص ص : 174 -175 .

يفتك بهما لولا تضرعهما للإله شمش واستجابة الإله لدعائهما بتسليطه الرياح العاتية على خمبابا فسببت له الشلل وتمكنا من القضاء عليه ، ولما عاد البطلان إلى الوركاء وأثناء إقامة احتفالات النصر خاطبت الآلهة عشتار جلجامش قائلة: " تعالى يا جلجامش وكن لي زوجا ، وقدم لي حبك هدية ، ستكون أنت زوجي وأكون أنا زوجتك .." ، فرفض جلجامش عرض عشتار وذكرها بما فعلته بعشاقها منهم تموز ، باشق حصان ، بستاني ، أسد ، وناداها قائلا : "إنك تحبين الآن ولكنك ستضربينني فيما بعد كما ضربت هؤلاء جميعا[1].

فثارت عشتار لذلك وطلبت من والدها أنو أن يرسل ثور السماء ليقتل جلجامش ، لكن الإله أنو رفض في البداية فهددته لذلك وافق على طلبها وأنزل الثور وأخذ يفتك بالوركاء ، غير أن جلجامش وأنكيدو استطاعا القضاء عليه وعلى مرأى من عشتار ، ونتيجة لذلك أعلنت الآلهة الانتقام من البطلين فقررت الموت لأنكيدو والذي حل به مرض الموت وأدرك قرب نهايته ، وبعد أن مات أنكيدو حزن جلجامش بفقده ، فظل خائفا يترقب مصيره المحتوم ، وفي نفس الوقت بدأ يفكر في وسيلة من أجل الخلود فهداه تفكيره إلى البحث عن جده "أوتنابيشتم" بطل الطوفان ليسأله عن كيفية أن يكون خالدا ، وبعد سفر طويل صعب محفوف بالمخاطر والأهوال وصل جلجامش إلى بطل الطوفان ، وبعد أن علم بسبب مجيئه أخبره أوتنابيشتم بحتمية الموت و إن الموت قاس لا يرحم ، و متى بنينا بيتا يدوم إلى الأبد؟ وهل حتمنا عقدا يدوم إلى الأبد[2].

ثم سأله جلجامش كيف استطاع الحصول على الخلود رغم أنه من البشر ، فكان جوابه بأن قص عليه الطوفان:فقد روى أوتنابيشتم من خلال الحوار الذي دار بينه وبين جلجامش أنه كان يعيش في مدينة شورباك وكيف أن الإله أيا كشف له النقاب عن قرار الآلهة بإحداث الطوفان ، ثم يأتي أوتنابيشتم بعد ذلك على ذكر تفاصيل بنائه سفينة النجاة التي حملته ومن معه من بشر وحيوانات وطيور ومؤن خلال الطوفان الهائل الذي استمر 6 أيام وسبع ليالي... "وهكذا عزمت الآلهة في قرارة نفوسها أن تفني

---

(1) ول وايريل ديورانت ، قصة الحضارة – نشأة الحضارة – تر : زكي نجيب محمود ، تق : محي الدين صابر ، ج1 ، دار الجيل للطابعة والنشر ، بيروت – لبنان ، 1981 ، ص : 242.

(2) رشيد عبد الوهاب حميد ، حضارة وادي الرافدين ، المرجع السابق ، ص : 174 .

العالم بطوفان ، ولكن سيدي أيا أنذرني بذلك في المنام إنه همس بكلماته خلال بيتي المصنوع من القصب قائلا:أيها البيت القصبي ، أيها الجدار، أيها الجدار ...أوليني أذنا صاغية ، أيها البيت القصبي ، تأمل أيها الجدار ..أيها الرجل من شورباك ابن أوبرا-توتو...قوِض بيتك ، وابني لك فلكا...أترك ممتلكاتك وأنج بحياتك...دع عنك متاعك الدنيوي وأنقذ روحك، ودعها تعيش..هدم بيتك أقول لك ، وابني فلكا...وهذه هي مقاييس السفينة إذا أردت بنائها...ليكن عرضها مساويا لطولها...اجعل ظهرها مسقفا كما يعلو السرداب سقفه...ثم خذ معك في الفلك بذر جميع المخلوقات الحية"[1].

وبعدها خاطب أوتنابيشتم جلجامش: من سيجمع الآلهة من أجلك لتنال الحياة الخالدة ؟ تعالى أمتحنك "لا تنم ستة أيام و سبع ليالي" ، لكن جلجامش أخذه النوم ، بعدها كشف أوتنابيشتم لجلجامش عن سر نبات عجيب ينبت في أعماق البحر له خاصية السحر في تجديد الشباب ، ونجح جلجامش في العثور عليه ، غير أن الحظ خانه أثناء توقفه في الطريق فقد سرقت منه الحية النبتة وأكلتها فنزعت جلدها وأصبحت تجدد شبابها كل عام ، وعند ذلك يئس جلجامش على ذلك وأخذ يبكي[2].

لقد زخرت الملحمة في تفاصيلها الدقيقة بالأفكار والمعاني التي تعطي صورة كاملة لحياة وأنشطة شعوب وادي الرافدين ، والشيء الذي يهمنا في الملحمة هو الجوانب الدينية فيها، فقد تحدثت عن الآلهة وأفعالها وصفاتها وصراعاتها ، والمجلس الذي يضمها وعلاقتها بالبشر والطقوس التي تقام لها ، والقرابين التي تقدم إليها ، وتذكر الملحمة أيضا بعض الصلوات والتوسلات المقدمة للآلهة ، واهتمام الملوك ببناء المعابد وترميمها، ومن المفاهيم الدينية التي تتعرض لها الملحمة أيضا مفهوم الخطيئة الإنسانية التي جاءت بالطوفان ومفهوم الثواب والعقاب ومفهوم حياة ما بعد الموت وحتميته والبعث ، وكله تعطي لنا فكرة عن التصور الديني ، والشيء الأهم هو أنه لأول مرة يتصدر الإنسان وسط الآلهة ويواجهها ويكون ضمن صراعاتها[3].

[1] ايج .أي . ايل ، قصة الحضارة في سومر وبابل ، تر : عطا بكري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد – العراق ، 1971 ، ص : 41.
[2] رشيد عبد الوهاب حميد ، حضارة وادي الرافدين ، المرجع السابق ، ص : 177 – 178 .
[3] محمد حسن خليفة ، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى وحضارته ، دار قباء ، القاهرة – مصر ، 1998 ، ص ص : 209 – 211.

و في خضم هذه الأفكار والمعتقدات والطقوس الدينية ورواج الأساطير الفلسفية التي تمحورت اغلبها حول مبدأ الوثنية والشرك واعتناق الشعب بالعبودية لمئات الإلهة المنتشرة في بلاد الرافدين قديما ، فالديانة كثيرا ما كانت ترتبط بمصالح النظام السياسي للدولة الحاكمة آنذاك[1].

[1] محمد حسن خليفة ، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى وحضارته ، المرجع السابق ، ص : 211.

المبحث الأول : لمحة عن الحضارة القرطاجية

اسم قرطاج الفينيقي " قرت حدشت " يعني المدينة الجديدة ، أسسها سنة 814 ق.م فينيقيون أتو من صور ، وأطلقت كلمة " فوني " على فينيقيي الغرب وعلى إنتاجهم[1].

تقع قرطاج على بعد 16 كلم تقريبا من الشمال الشرقي لمدينة تونس ، المدينة الإفريقية الحالية ، على شبه جزيرة واسعة ، يحدها من الجنوب خليج تونس ومن الشرق البحر ، من الشمال بحيرة " سوكرا " الملحة والممتدة على الشاطئ ، ويتصل شبه الجزيرة هذا من الغرب بالقارة الإفريقية ، وينتهي عند البحر بنتوء صخري ارتفاعه 150 متر ، وينقسم إلى قسمين شبه متساويتين : في الشمال سواحل مستوية ، تحد سهلا واسعا وخصبا ، قليل السكان في القديم ، ولكن تغطية بساتين غناء وأراض زراعية ، وفي الجنوب الشرقي لهذا المرتفع الصخري الذي تقوم عليه في الوقت الحاضر قرية سيدي بوسعيد يمتد سهل تتخلله الأودية الصغيرة ، وثلاث تلال تغطيها الخرائب : هناك كان يقع قلب مدينة قرطاج[2].

إن بعض الحقائق التاريخية والأساطير التي وصلت إلينا عن تأسيس هذه المدينة لا يوسق لنا سوى القليل من المعلومات الدقيقة ، ولكننا نعلم أن أليسّا ، مؤسسة قرطاج والمعروفة بديدون ، اللقب الشعري الذي أطلقه فرجيل عليها ، هي أخت بيغماليين ، ملك صور ، ونكاد نجهل كل شيء عما يتعلق بسلالة أليسّا وبيغماليون فهل يتحدران من أحيرام ملك صور الذي عاصر سليمان وكان صديقه ؟، هذا أمر محتمل ، أم هل يتحدران من الملك إيتوبعل ؟ يكاد يكون ذلك مؤكدا ، فلقد عرفنا ذرية هذا الملك بواسطة روايات تاريخية وتوراتية وشعرية[3].

---

(1) مادلين هورس ميادان ، تاريخ قرطاج ، تر : ابراهيم بالش ، منشورات عويدات ، ط1 ، بيروت – باريس ، 1981 ، ص : 10.
(2) المرجع نفسه ، ص ص : 10 -11 .
(3) أحمد توفيق المدني ، قرطاجنة في أربعة عصور " من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي " ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص : 26.

ولا يستبعد أن تكون أليسا قد جلست على العرش وتزوجت آشرباس كبير كهنة ملكارت ، وبعد أن أرسل بيغماليون أحدهم فقتل صهره ، عزمت أليسا على الهرب ، برفقة جماعة كبيرة من الأشراف ، الذين أخذوا بصحبتهم عددا كبيرا من عامة الشعب الساكنين في جوارهم ، كالبحارة والأجراء والعبيد وغيرهم ، وأبحروا بمراكبهم ، فوصلوا إلى قبرص التي كادت السيطرة الفينيقية تشملها بكاملها ، ولا عجب إذا لاقي الفارون استقبالا حسنا ، لأن كبير كهنة الجزيرة كان يشاطر الملكة أليسا معتقداتها وآمالها ، وقرر أن يرافقها مع جماعته إلى منفاها ، فأكدت له الملكة ، اعترافا بجميله أن ذريته ستتمتع في المدينة الجديدة بالوظائف والامتيازات الكهنوتية ، وأفاد الفارون من التوقف في قبرص ، فضمنوا لمدينتهم سلالة من الكهنة وعددا كبيرا من الزوجات ، فبينما كانت جماعات من الفتيات تغنين على شاطئ الجزيرة حسب تقليد ديني ، اختطفن لتسكن قرطاج[1].

وبعد إبحار طويل ، وصلت أليسا مع أتباعها إلى الساحل الإفريقي ، ونزلت في بقعة لم يقع الاختيار عليها صدفة ، وكان في هذه البقعة موقع فينيقي لا نعرف اسمه الأول ، فسميت أليسا هذا المكان " قرت حدشت " أي المدينة الجديدة ، وما كادت قدمها تطأ الشاطئ حتى اتصلت بأهالي البلاد الأصليين واستطاعت أن تحصل من رئيسهم على أن يمنحها من الأرض مقدارا ما يحتويه جلد ثور ، فأمرت الملكة بتقطيع الجلد إلى أشرطة دقيقة ، وأحاطت بواسطتها ببقعة أرض واسعة استطاع أتباعها أن يقيموا فيها ، وانتظم التبادل التجاري مع أهالي البلاد الأصليين ، وأقبل سكان أوتيك المستعمرة الفينيقية الواقعة على بعد عدة كيلومترات من شمال قرطاج ، ليزوروا مواطنيهم بعد أن بلغتهم شهرة أليسا وعرفوا نفوذ أصحابها ، تلك هي أسطورة تأسيس قرطاج التي رواها " تيمه " المؤرخ القلي و " تروغ يوميه "، ولا شك أن هذه الرواية ، رغم كونها خرافية تحتوي على أسس تاريخية ثابتة[2].

---

[1] مادلين هورس ميادان ، تاريخ قرطاج ، تر : ابراهيم بالش ، المرجع السابق ، ص ص : 38 – 39.
[2] المرجع نفسه ، ص ص : 39 – 40.

ولما عظمت قرطاجة وامتد نفوذها إلى أقصى بلاد المغرب ، فكرت في قطع العلاقات مع الوطن الأم ، وأصبحت مستقلة بنفسها تعمل على تنظيم شؤونها الإدارة والسياسية ، محتفظة أشد ما يمكن بصبغتها الشرقية القديمة ، ويمتاز أهل قرطاجة بالمحافظة على لغتهم الوطنية وتقاليد المرعية وآلهتهم المتعددة التي ورثوها عن أجدادهم الفينيقيين ، كما أنهم يمتازون بالمحافظة على كل ما من شأنه أن يذكرهم بحياتهم الشرقية الأولى ، أما مبادئهم فهي المبادئ المادية وقد تشبثوا بها إلى حد أن الحركة الفلسفية التي اشتهر به اليونان لم تحرك فيهم ساكنا ، بل لم تؤثر فيهم بالمرة بيد أنهم تأثروا بالفن المعماري اليوناني ، ذلك الفن الذي نجد أثره ظاهرا في المقابر والكنائس التي يرجع بناؤها إلى القرطاجيين كما يبدوا جليا في نوع الجواهر والأقمشة والأواني الطينية التي كانوا يستعملونها ، ومن الممكن أن نقول أن الفن القرطاجي كان خليطا من فنين متباينين فيه من الفن اليوناني ، وفيه من الفن الفينيقي الذي أتوا به من بلاد الشرق[1].

هذا ولسنا نعلم كثيرا عن النظم التي اعتمدت عليها قرطاجة في إدارة شؤونها السياسية ، إلا ما أفادنا به المؤرخ الشهير إلم البارتيني الذي يقول في هذا الموضوع بالذات "كل ما نعلم عن تلك النظم أن قرطاجة كانت تنتخب كل عام رئيسين للحكومة لمدة سنة واحدة وأعضاء مجلس الشيوخ لمدة حياتهم ، وهم الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور ، ولم يكن هذا المجلس يجتمع إلا عند وفاة أحد أعضائه ، فيقع تعيين من يخلفه ، ونعلم فوق ذلك أن قرطاجة كانت تنتخب قائدا تسند إيه مقاليد الأمور العسكرية وتكله بقيادة الجيش القرطاجي ، ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أنه لم يكن في استطاعة أحد الرئيسين اللذين سبقت الإشارة إليهما أن يتخذ أي قرار إلا بموافقة زميله الآخر[2].

أما وضع النصوص القانونية فكان أيضا من خصائص الحاكمين المذكورين ، تساعدهما على ذلك لجنة خاصة يعينها مجلس الشيوخ ، وكانت التقارير ترفع بعد تحريرها للمجلس بقصد الموافقة عليها وأما

[1] محمد محي الدين المشرفي ، إفريقيا الشمالية في العصر القديم ، دار الكتب العربية ، ط4 ، بيروت – لبنان ، ص ص : 42 -43.
[2] المرجع نفسه ، ص ص : 43 – 44 .

الولاة – وهم الممثلون للحكومة المركزية في سائر المناطق المحتلة – فقد كانت الحكومة تختارهم غالبا من بين التجار والصناع ، أي من الطبقة البرجوازية الرأسمالية التي كثيرا ما كانت تقدم مصالحها الشخصية على مصالح الأمة ، فتعكر بمثل هذا العمل الشنيع صفو العلائق بين الحكومة وعامة الشعب[1].

كان النشاط الصناعي بقرطاج يشمل ميادين مختلفة ولكنه لا يدل على مهارة فنية فائقة أو على قوة ابتكارية تذكر ، وكان العمال وأصحاب الحرف والصانع يعتبرون من المواطنين الأحرار ولكنهم لا يدخلون في طبقة الأشراف ويقول ستيفان قسال " يمكن أن نتصور أن الرجال الذين كانوا يمسكون بزمام الدولة وكانوا أرباب الحل والعقد وكانت بأيديهم شؤون التجارة البحرية الكبرى ، كانوا في الوقت نفسه يملكون المصانع التي تعمل فيها جماعة من العبيد ، يستخدمون صناعا من العتقاء أو الأحرار كشركاء في شركة توصية ويقتسمون معهم الأرباح " ، وكانت صناعة المعادن أهم الترسانات والمصانع البحرية التي كانت تحت مراقبة الدولة كانت تمون الأسطول والجيش ويمكن أن نتصور درجة إنتاج قرطاج في هذا الميدان بما كانت تصنعه أثناء الحرب البونيقية الثالثة ، فهي أخرجت في شهر واحد 3000 ترس و 9000 سيف و 15000 رمح و 30000 سهم وهم يناسب نشاط ما يقرب من أربعمائة مصهر (أي معمل للحديد) وإذا فرضنا أن مصهر كان يشتغل فيه خمسة من العمال فإن جملة عددهم يكون ألفين ، أن صنع السفن كان أمرا مسترسلا ومتواصلا سواء للحرب أو التجارة ، ونحن نعرف أن حكومة قرطاج كانت سنة 480 في حاجة إلى 3000 سفينة تجارية لنقل الجنود وما يتبعهم من مؤونة وعتاد حربي[2].

هذا أن القرطاجيين كانوا بحارين بارعين وسفانين على غاية من المهارة ، وكانوا يستعملون خشب الأرز الذي اشتهرت به لبنان والذي كان موجود بكثرة على الجبال ببلاد التونسية ، حيث كانوا يستعملون

(1) محمد محي الدين المشرفي ، إفريقيا الشمالية في العصر القديم ، المرجع السابق ، ص : 44.
(2) أحمد صفر ، مدينة مغرب العربي في التاريخ ، ج1 ، درا النشر بوسلامة ، تونس ، 1959 ، ص : 109.

خشب السرو وكانوا يصنعون السفن ويجلبون المواد الأولية من اسبانية لصنع الأشرعة والحبال ، هذا إلى وجود الكثير من الصناعات التي ميزت فترة تواجد القرطاجيين مثل صناعة النسيج والحياكة ، الصباغة ، صناعة الأديم أو الجلد المدبوغ ، صناعة الخزف ، صناعة الزجاج[1].

إلا أن قرطاج كانت منهمكة في التجارة وغير مهتمة بالفلاحة واستمرت كذلك إلى منتصف القرن الخامس ، من ذلك التاريخ شرعت في امتلاك الأراضي الواسعة والخصبة ونجحت كل النجاح في استغلال حتى أن ديودورس الصقلي يحكي لنا بأن أغاتوقليس لما نزل بالوطن القبلي سنة 310 متجها نحو قرطاج وقف مدهوشا وهو وجيشه أمام ما شاهدوه من كروم وزياتين وحدائق وبسلتين كانت كلها في ازدهار كبير ، وما رواه من مروج فسيحة ترعى فيها القطعان من الغنم والبقر والخيل[2].

كما قد تعلم الفينيقيين عن القبرصيين بناء الحمامات وتجهيزها تجهزا متقنا على الأخص فيما يتعلق بالتسخين وجريان الماء وقد كانت محلات الأغنياء بقرطاج مجهزة بقاعات الاستحمام وأحيانا بأحواض خاصة للسباحة ، وكانت هناك أيضا حمامات عمومية منها ما كان مخصصا لطبقة الارستقراطية ومنها ما كان مفتوحا لعامة الناس ، وكانوا رجالا ونساء يتطيبون ويكثرون من استعمال العطور وقد وجدت بجميع القبور أوعية صغيرة وقناني معدة للطيب[3].

---

(1) أحمد صفر ، المرجع السابق ، 110.
(2) رشيد الناضوري ، تاريخ المغرب الكبير ج 1 .(العصور القديمة .أسسها التاريخية الحضارية و السياسية) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981، ص : 52.
(3) المرجع نفسه ، ص : 56 .

أما من ناحية اللباس فقد كان الصوريون يلبسون جبايا طويلة من الصوف ذات أكمام وتظهر لنا الجبة في أبسط أشكالها على تمثال صغير يمثل رجلا متعبدا وقع العثور عليه أخير بقرطاج (جبة فضفاضة كما هو موجود عندنا إلى الآن) وهذا التمثال يعد من أحسن ما أنتجه الفن البونيقي وذلك لبساطة خطوطه التي أكسيته متانة وقوة ، ونرى أنهم كانوا لا يتمنطقون أي لا يشدون وسطهم بنطاق ، ولا يرتدون رداء فوق الجبة ، وكان ذلك يبدوا غريبا عند اليونانيين حتى أن أحدهم كتب رواية فجعل اليوناني ينادي البونيقي هكذا " يا أنت الذي ليس عندك نطاق ! " أو يستهزئ عليه بقوله " من هذا الذي قدم إلينا في قميص ؟ هل سرقوا له رداءه في الحمام ! "[1].

[1] محمد الهادي حارش ، التاريخ المغاربي القديم (السياسي و الحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، 1992، ص : 82.

المبحث الثاني : لمحة عن الحضارة الليبية البونية (حمّون بعل).

البونيقيون هم الفينيقين الذين اختلطوا بالبربر فتميزت خصائصهم الحضرية عن خصائص أجداهم أهل صور وصيدا من مد فينيقيا الذين أسسوا المراكز تجارية على طول السواحل الغربية في القرن الثاني عشر ق.م ،والملاحظ غياب هذه الدلائل العرقية في المصادر باستثناء تيتيوس ليويوس الذي يرى في اللوبيفينيقين " خليطا من الفينيقيين والأفارقة " ، فعند تعرضه للقوات التي تركها حنبعل تحت تصرف شقيقه عزربعل في إسبانيا في بداية الحرب الثانية ضد روما يذكر عدد الجنود وجنسياتهم ومن ذلك كتائب الخيالة التي تضم " أربعة مائة وخمسين لوبي فينيقيا وهم نتاج تهجين بين البونيين والأفارقة " ثم يذكر النومدين والماوريين[1].

رأينا بلاد المغرب عندما قدمت إليها الجاليات الفينقية ، وليس بها نظام و لا ممالك و لا سياسة واتحاد ، وكانت لها ملوك صغارهم في الحقيقة رؤساء قبائل لا يعفرون من الإدارة ولا من النظام شيئا ، فانتصبت قرطاجنة وارتقت وانتشرت وامتد نفوذها على سائر الأنحاء ولقد كان نفوذها ممدتا ، وكان لذلك النفوذ تأثير صالح على البربر ،فبفضله تطوروا وبفضله اخذوا ما أنتجته من سياسة ونظام[2].

أصبحت بلاد المغرب ، بعد انتهاء هذه الوقائع " وقائع الحرب البونيقية الثانية " ذات ممالك بربرية مستقلة عن قرطاجة ،كما أن الأطراف التي بقيت بعيدة عن الحكم البونيقي المباشر أي عن سلطان قرطاجة نفسها حاولت مرارا بناء ممالك دامت طويلا أو قصيرا أو كثيرا واستقلت عن القرطاجيين أكثر وإن أقل وهذه الجهات في الغالب هي الصحاري والجبال والأقاليم الداخلية البعيدة عن الساحل الواقع تحت نفوذ البونيقين[3].

(1) عثمان الكعاك ، البربر ، تامغناست للنشر ، ص : 10.
(2) محمد الهادي حارش ، التاريخ المغاربي القديم ، المرجع السابق ، ص : 89 .
(3) المرجع نفسه ، ص : 93 .

ويلاحظ في تاريخ أثناء الإمبراطورية البربرية والتي لم تشر إليها المصادر التاريخية القديمة بوضوح إلا في منتصف القرن الثالث ق.م ، و في ظل التطورات التي عاشتها المنطقة في تلك الفترة ، والصراع الدائر بين قرطاجة والرومان ، لاسيما خلال فترة الحرب البونية الثانية ، أخذت نظامها وبنور المدينة القرطاجية تهتدي في سيرها ، حيث أصبح في المغرب ثلاث دول عظيمة : أولاها مملكة الموريون (Mauri) وكانوا يعشون في أقصى المغرب ، فيها بين الأطلنطي ومولكا (Mulucca) (واد الملوية) ،وقد أطلق على إقليمهم اسم " موريتانيا " ، ومن قبل مورسيا (Maurousia) وقد امتد اسم " موريتانيا " بعد ذلك شرقا إلى ما وراء " وادي شلف " ، وثانية مملكة النوميديون (Nulidae) وكانوا يعيشون بين المور وأقصى إمداد غربي للقرطاجيين في الإقليم الداخلي – في إقليم نوميديا – وهذا ورغم أن الإغريق والرومان إنما قد اشتقوا – خطأ اسم النوميدين من كلمة يونانية بمعنى " الرعاة " ، ويعنون بها وصف طريقتهم في الحياة – أي أن البدو الرحل (Nomadie) – فالواقع أنه لم تكن هناك اختلافات جوهرية بين السكان في المنطقتين – منطقة الموريين ومنطقة النوميديين وعلى أية حال فلا شك أنه كانت هناك مناطق للحياة المستقرة والزراعة الدائمة ، التي استمرت هناك في النمو والتطور ، وهذا فضلا عن أن هناك اتصال وثيق بين موريتانيا وجنوب أسبانيا ، وثالثها مملكة الجيتوليون (Gaetuli) (الجدالة) وهو الاسم الذي أطلق على الرعاة الحقيقيين على طول حواف الصحراء الشمالية[1].

وعند انتهاء الحروب البونيقية الثانية ، كان ملوك البربر في الممالك الثلاثة هم ، بوكار بالملكة الأولى ، و فارمينا بالملكة الثانية ، وهو خاضع لنفوذ روما وماسينيسا بالملكة الثالثة مملكة نوميديا جارة قرطاجة ، وقد ارتبط تاريخ المدن الثلاث بقرطاجة ، ويعتقد بعض الباحثين أنها كانت تؤلف منطقة أدارية واحدة وربما كان لها مجلس عام يجتمع مرة واحدة كل عام ومعلوماتنا عن أحوال المدن السياسية قبل الصراع الروماني قليلة جدا حيث لم يرد ذكرها إلا في بعض المصادر الجغرافية[2].

---

[1] محمد بيومي مهران ، المغرب القديم " مصر والشرق الأدنى " ، ص : 194

[2] المرجع نفسه ، ص : 195.

وقد أظهرت الاكتشافات الأثرية أن المدن لم تتوسع بصورة ملموسة إلا في القرن الثالث وهذا راجع بطبيعة الحال إلى العزلة التي فرضتها قرطاجة عليها وفقا للمعاهدات التي عقدتها مع روما ، والتي كان من شانها احتكار قرطاجة لجميع عمليات الاستيراد والتصدير ، ونتيجة لهذه السياسة القرطاجية المبنية على إبعاد النفوذ الأجنبي عن المراكز التجارية والرقابة الصارمة عليها ، وتمكنت بذلك من الاحتفاظ بسيادتها عليها لعدة قرون ، أما بخصوص الشؤون الداخلية فمن المرجح أنها كانت تتمتع بقسط من الحرية ، حيث ذكر سالوست " أن أهل المدن الثلاث كانت لهم قوانينهم الخاصة " التي احتفظوا بها لفترة طويلة وأن المدن أو المماليك الثلاث استخدمت لقب سوفيت " Sufete " وهي كلمة فينيقية بمعنى قاض ، ورغم أن الدليل الوحيد على استخدامها قد جاء من نقوش تعود للفترة الرومانية ، ولكنه مستمد من الدستور المدينة الأصلي الذي ربما يطابق دستور قرطاجة ، وتشير نقوش إلى صنف أخر من القضاة يسمى موهازيم " Muhazim " بمعنى الجابي ، وترجح تلك الوظيفة إلى العصر الفينيقي على الأرجح ، وكان من اختصاص هؤلاء المسؤولين تحصيل الغرامات ، وتزويد الأسواق والأتوات وجمع الضرائب ، ويرجح وجود اسم أخر يسمى سهم " Shum " ويعتبر هذا القاضي مسئولا عن الزراعة[1].

وإذا تمسكنا بالحقيقة التاريخية يحملنا على القول بأن استوطان لبلاد المغرب لم يكن كله شرا ووبالا عليها ، بل لابد من الاعتراف بأنه أفادها إفادة تذكر فالمعروف اليوم عن القرطاجيين أنهم بثوا في رعاياهم البربر روح المدينة والعمران وجاءهم بالآلات الفلاحية التي أتقنوا صنها وحملوهم على توجيه عنايتهم للفلاحة لاسيما فيما يرجع لغراسة الأشجار ، كما حملوهم على الاهتمام بتربية المواشي ، وقد نسج أهل المغرب على منوال القرطاجيين في هذا المضمار وعملوا على استثمار أراضيهم بصورة تبعث على الرضا والاطمئنان[2].

[1] جيهان دايتريج ، تاريخ إفريقيا العام ، ج 1 .، اليونيسكو ، باريس ، 1985، ص- ص : 133.
[2] المرجع نفسه ، ص ص : 133 – 134.

هذا ولم يحذ المغاربة حذو القرطاجيين في الشؤون المادية والاقتصادية فحسب ، بل اقتفوا آثارهم في سائر الميادين الأخرى ، فأخذوا عنهم ما كانوا يتحلون به من أخلاق وقلدهم حتى في وثنيتهم ، فجعلوا يعبدون الكبش " عمون " كما كان يعبده القرطاجيين من قبلهم ، قلدوهم في كل شيء وأخذوا عنهم كل شيء حتى كادت أن تبتلعهم تلك الحياة الجديدة ، والواقع أن الحياة في الدن العظيمة والقرى العامرة كقسنطينة وسطيف وغيرها كانت راقية مزدهرة في تلك الأيام ، بحث كثرت فيها البناءات والأجنة والقصور والملاعب ونفقت فيها سوق العلم الآداب .... وانتشرت الحضارة البونيقية وعمت الثقافة البونيقية البربر حتى أنهم لما أسسوا ممالك مستقلة كانت إحدى اللغتين الرسميتين هي اللغة البونيقية ، وانتشر لسان القرطاجيين القومي ، فأخذه عنهم البربر بسهولة لا تستغرب إذا ما أعدنا إلى مرة أخرى أن البربر والقرطاجيين من أرومة سامية واحدة وأن الشبه عظيم بينهما لا فيما يتعلق بالبنية والعنصر بل فيما يرجع إلى التفكير أيضا ، وبها ألف البربر تصانيفهم ولم يكن بربري مثقف لا يعرف اللغة البونيقية حتى أن الرومان لما انتصروا على البونيقيون وأخذوا قرطاجة انتزعوا ما يوجد في المكتبات من الكتب البونيقية ووزعوها على البربر[1].

[1] محمد الهادي حارش ، التاريخ المغاربي القديم (السياسي و الحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المرجع السابق ، ص : 107.

المبحث الثالث : الصراع السياسي

دراسة المغرب القديم لم تحظى باهتمام كبير نظرا لاعتبارات متعددة على الرغم من أهمية هذا العصر القديم الذي تعود إليه بداية ونشأة الحضارة القديمة، والاهتمام بالعصور القديمة تزامن مع المد الاستعماري الأوربي لشمال المغرب بحيث نجد المؤلفات مرتبطة بالعالم القديم من الضروري أن نعود إلى هذه المؤلفات والتعامل معها بالحيطة والحذر من معلوماتها ، ومن المنطقي أن تتعرض الخزانة العربية من أولويات أخرى مرتبطة بالخصائص الجغرافية التي تميزت عن باقي البلدان التي تتواجد على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط وقربه أتاح له إمكانية الاستفادة من التيارات الاقتصادية والمواد الآتية من الشرق وبعض البلدان الأوربية وذلك عبر المحيط الأطلسي من خلال هذا يتبين أن بلاد المغرب القديم نقطة الاتصال لحضارة متعددة ساهمت بقسط وافر بالاستقرار الشعب وإدخاله لمرحلة التاريخية كبداية الأزمنة التاريخية للمغرب تقترن بظهر التجارة إلى بلدان الشمال حيث أنشئو مراكز للتعامل مع الأهالي لاستبدال سلعهم بسلع أخرى وان كانت هذه المرحلة تميزت بكونها سلمية ذات أسس تجارية واتفاقية أتاحت لسكان مال إفريقيا التعرف على المتوجات الأجنبية وتنفتح على تيارات فكرية تعود جذورها إلى بلدان البحر الشرقي للأبيض المتوسط ،فإن ظهور قوى متصاعدة في البحر الأبيض كالمتوسط أدت في بداية الأمر إلى ظهور قرطاجة كقوة سياسية بإمكانها الانفتاح على أسواق الفينيقية وذلك قبل أن تتعرض لتدمير من طرف الجيوش الرومانية التي غزت معظم العالم وبين تلك السيادة والغزو برزت وجود تنظيمات محلية على شكل ممالك تعود شارتها إلى ق 3 ق.م[1].

ولا يمكن معرفة بضبط بداية و نوعية الصراعات السياسية الباكرة الفنيقية اللوبية في غربي المتوسط فيما عدا بعض الإشارات التاريخية البسيطة التي يغلب عليها الطابع الأسطوري في الكثير من الأحيان و يستفاد من المعلومات المشار إليها أن اللوبيين في بداية الأمر كانوا قد رحبوا بالتجار الفنيقيين الذين

---

[1] رشيد الناضوري ، تاريخ المغرب الكبير ج 1 .(العصور القديمة: أسسها التاريخية الحضارية و السياسية) ، المرجع السابق ، ص : 78.

جاءوا بلادهم و ذلك نظرا لغايتهم السلمية التي كانت لا تتعدى إنشاء مراكز تجارية تتم فيها المبادلات حيث قام الفنيقيين بدفع ضريبة مالية سنوية للوبيين عربونا للصداقة و حفاظا على المكان الذي أسسوا فيه مدينتهم الجديدة و دام ذلك حتى القرن 5 قبل الميلاد ولقد كانت المحطات الفينقية و القرطاجية في كل من الجزائر و المغرب الأقصى ثم ليبيا مرتبطة بقرطاجة في تونس غير أننا نجهل طبيعة تلك تربط بينهما فقد كانت من حيث القانون الدستوري على ما يبدو تدور في فلك قرطاجة غير أنها تحتفظ لنفسها باستقلال محلي خاصة فيما يخص التسيير الإداري المعروف في وقتنا الحالي بالمجالس البلدية الخاصة وكذلك ادخل القرطاجيون بناء على ما تشير إليه الكتابات التاريخية مفاهيم تكوين الدول و تنظيم الحكم و لقد وصف الدستور القرطاجي بأنه أحسن الدساتير في تلك الفترة ومن بينهم أرسطو اعترف بذلك ومن ثم برزت عدة مدن ساحلية و داخلية في بلاد المغرب القديم تمتعت بكيانها الخاص في نطاق الكيان العام القرطاجي منها أويه [طرابلس]و صبراته في ليبيا و تابسوس[سوسة]و حدرومات[كركوان] ثم بنزرت في الساحل التونيسي و في الساحل الجزائري مثل هيبون[عنابة] ثم صلداي[بجاية] و ايكوزيوم[الجزائر العاصمة]و تيبازة و كذا تمودة و طنجة ثم ليكسوس في المغرب الأقصى[1].

يتبين من بدايات قرطاج أن المدينة وإن لم تواجه لا عداوة صراحا فلقد واجهت على أقل مطالبات صادرة عن سلطة منظمة ، ولا عن مجموعات صغيرة من الرحل كان يكفي لتفريقها مجرد استعراض للقوة ، والواقع أن هنالك إتاوة كانت تدفع بانتظام برسم إيجار الأرض المغطاة بجلد الثور الأسطوري (وهذا تفسير وهمي لاسم بيرصا Byrsa*) ، بل كان يقع ما هو أكثر من ذلك ، فعندما ضحت إليسا ديدون Elissa-Didon بنفسها على المحرقة فإنما فعلت للهرب من طلبات حيارباص Hiarbas

(1) أحمد محمد انديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاثة ، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ط1 ، بنغازي – ليبيا ، 1993 ، ص : 113.

* Byrsa ، اسم التل التونسي ، الذي يقال إنه كان آخر ملاذ للقرطاجيين خلال الحرب البونيقية الثالثة .

ملك الماكسيتانيين Maxitani الملحة عليها* ، ويخبرنا أوسثاتيوس Eusthate عن هذه الشخصية أنه كان ملك المازيس ، ومن المعلوم أن هذا الاسم الذي حملته أقوام كثيرة من إفريقيا القديمة ، هو تحريف لاسم بربري " أمازيغ " و " أمازيغن " ، الذي تسمى به هذه الأقوام ، وكان الاعتقاد يذهب إلى أن الماكسيتانيين الذين ذكرهم جوستينوس Justin كانوا يحملون الاسم نفسه بتحريف فاحش ، لكن ج . ديسسانج جاء منذ وقت قريب بتفسير آخر يبدوا لي مثيرا للاهتمام وزاخرا بالنتائج ، فقد ذكر أن الماكسيتانيين كانوا يسكنون إقليما قريبا بطبيعة الحال إلى قرطاج لا يزال اسمه باقيا في باقوس موسكي Bagus Muxi ، وهو نفسه وريث دائرة الإقليمية قرطاجة ، وبذلك تتطابق الحكاية الأسطورية ، ويا للغرابة ، مع الوقائع السياسية! (1) .

وعليه ، فإننا نلحظ منذ بدايات قرطاج أن المدينة قامت على كيانين متواجهين : المدينة التجارية المشرقة ، وما يشبه السيادة الليبية ، ومن التقاء هذين الكيانين المشرقي والإفريقي ، نشأ الواقع البونيقي ، وما كان الأمر مجرد نقل لما كان في صور Tyr وصيدا Sidon إلى الأرض الإفريقية ، وإذا كانت التقاليد البونيقية قد بقيت على حيويتها عند قدامى الإفريقيين فلأنها لم تكن عنهم بغريبة ، بل تشكلت بين ظهرانيهم في المدن حيث أسماء المواضع ، ومعظمها سام ، لا تفلح في إخفاء الإضافة العرقية الإفريقية(2).

ينبغي لنا أن نتخلص من المفاهيم المتحجرة المرتبطة بتصورها للدولة والحدود والتراب والملكة ، فهذه الكيانات لم تكن أشخاصا قانونيين واضحين ومحققين ، وإذا كان من اليسير علينا أن نقابل بين قرطاج وإمبراطوريتها ، كما عرفناها في القرن الرابع من جهة ، وبين المملكتين النوميدية والمورية من جهة ثانية ، فإننا متى تمعنا في المعطيات الجغرافية أمكننا أن نستبين تدخلا يكاد يتعذر على الحل بين قوتين ، وعندما يقول بسودو سكيلاكس Pseudo-Scylax في القرن الرابع إن كل المستودعات أو المدن الليبية ،

---

* فقد كان يطالبها للزواج .

(1) غابرييل كامب ، البربر ذاكرة وهوية ، تر : عبد الرحيم حزل ، إفريقيا الشرق للطبع والنشر ، الدار البيضاء – المغرب ، 2014 ، ص : 188.

(2) المرجع نفسه ، ص ص : 188 – 189.

بعد أن عددها ، من سرت الكبرى حتى أعمدة هرقل ، تعود إلى القرطاجيين فربما بعثنا هذا القول على الشك في قوة المملكتين النوميدية والمورية ، بل ربما بعثنا على الشك في وجودهما أيضا ، لو لم يكن في بناء مآثر في عظمة المدراسن في الوقت نفسه ما يقيم الدليل على وجود تلك المملكتين وتقيم الدليل على قوتهما[1].

يتبين لنا مما سبق أن العلاقات اللوبية القرطاجية كانت علاقات سلمية اقتصادية استفاد منها اللوبيون في الخروج من العزلة التي كانوا يعانونها في لوبة منذ فترة ما قبل التاريخ و أيضا عرف المحليون بفضل احتكاكهم بالقرطاجيين نظام الاستقرار و تأسيس المدن إلى جانب أخذهم حروف الكتابة البونية التي كانت سببا في دخولهم الفترة التاريخية و استمرت هذه العلاقة الوطيدة إلى غاية بداية القرن 6 قبل الميلاد حين زحف الإغريق نحو الحوض الغربي للبحر المتوسط و منافستهم للقرطاجيين فعملت قرطاجة على تجنيد المرتزقة من أبناء المناطق التي كانت تتعامل معها و قد اخلص المحليون في معاملاتهم للقرطاجيين في بداية الأمر ووقفوا إلى جانبهم في كل المعارك التي خاضوها ضد الإغريق سواء في كورسيكا معركة الاليا سنة 535 قبل الميلاد أو صقلية نفسها و ضد الزحف الإغريقي عملت على تغيير سياستها في حوض الغربي للبحر المتوسط و قد انعكس ذلك على علاقتها مع اللوبيين حيث حاولت بعد تلك الهزيمة المرة إعادة النظر في سياستها التجارية المعتمدة لحد بعيد على ربط العلاقات بين شرقي المتوسط و غربه و أن لا تعتمد على تجارة وحدها بل لابد أن تعطي للزراعة مكانتها اللائقة وهنا يبدأ ما عرف في سياسة القرطاجيين بالاتجاه الإفريقي و تخلصت من الضريبة الثقيلة التي كانت تدفعها للوبيين و اكتسابها لأراضي جديدة خارج رآس بونة على حساب السكان الأصليين و أصبحت تفرض ضرائب جديدة و تجند المرتزقة من أبنائهم لمواجهة الموقف في صقلية ماديا و بشريا و بإتباع قرطاجة هذه السياسة قد أساءت إلى حلفائها اللوبيين و فتحت أعينهم على التمرد و العصيان و التخلص من سيطرتها[2].

[1] غابرييل كامب ، البربر ذاكرة وهوية ، المرجع السابق ، ص : 189.
[2] أحمد محمد انديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاثة ، المرجع السابق ، ص : 123.

أول ظاهرة بدأت من تذمر الإفريقيين في عهد الحكم القرطاجي هي اجتماع الجند المأجور في العاصمة ، وكانت عدته أربعين ألف مقاتل ، للمطالبة بالزيادة في مخصصاته وتقليد الرتب العسكرية للمستحقين من رجاله ، حيث كان الضباط القرطاجيون يعاملون جنودهم المرتزقة بقساوة و يتهاونون في دفع مرتباتهم و أكثر من ذلك تقديمهم و التضحية بهم أمام أعداءهم حيث أنهم يفرون في المعارك و يتركون أولئك الجنود يتحملون نتائج الهزيمة وحدث ذلك فعلا عدة مرات أمام أسوار المدن الإغريقية في صقلية حيث بات اللوبيون ينظرون إلى الحكم الأوليجارشي* في قرطاجة على انه شوكة غريبة في جسمهم فأصبحوا ينتظرون الفرصة الملائمة حيث تتعرض قرطاجة لازمات صعبة ليتمردوا عليها وظهر ذلك واضحا في عدة مناسبات نذكر منها:محاولة التصدي لقرطاجة و ذلك سنة396 قبل الميلاد محاولين استغلال ضعف قرطاجة بعد هزيمة القائد خملكان أمام أسوار سيراكوزة بصقلية و يذكر ديودوروس الصقلي بان تعداد المغاربة الذين اجتاحوا تونس و طوقوا قرطاجة بلغ حوالي 20 ألف نسمة و على ما يبدوا عدد مبالغ فيه ثم سنة379 قبل الميلاد حيث استغل اللوبيون فرصة الاضطرابات السياسية داخل مدينة قرطاجة و اجتياح الطاعون للمدينة البونية فحاولوا من جديد و يذكر ديودورس بأنه أثناء غزو آجاثوكليس لبلاد المغرب القديم سنة 310 قبل الميلاد و انظم إليه شخص نوميدي يدعى ايلماس بجنوده في بداية الأمر ثم عدل عن ذلك فيما بعد و كذلك انتهز النوميديون فرصة غزو القائد الروماني ريجولوس إلى بلاد لوبة لينقضوا على أملاك الدولة القرطاجية سالكين في ذلك مبدآ مباغتة العدو كلما كانت تصادفه مشاكل تضعف قواه غير أن القرطاجة كانت لهم بالمرصاد بعد أن هزمت القائد الروماني الغازي و بعد ذلك عاقب القائد القرطاجي من خلال عبدة ملقرت بدون رحمة كامل رؤساء القبائل و استولى على ممتلكاتهم[1].

* الأوليجارشي : مشتقة من الكلمة اليونانية أوليغارحيا ، وفي القرآن الكريم تسمى الفئة الحاكمة الملأ ، ويرمز لها بالأرستقراطية : وهي نظام سياسي يتصف أفراده بأنهم طبقة ثرية تشكل جزء صغير من سكان الدولة ، وهؤلاء يجعلون كل مقدرات الدولة وطريقة عملها تسير وفقا لمصالحهم وأهدافهم ، وأول من أشار لها هو أفلاطون في كتابه " الجمهورية " وجاء أرسطو وقدم المزيد من التفاصيل ، ذاكر أن الأوليغارشية دائما ما تنتهي بحكم الطغيان .

[1] عبد العزيز الثعالبي ، مقالات في التاريخ القديم ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 1986 ، ص : 23.

أما عن أهم تمرد على الإطلاق يتمثل في مشاركة المحليين في تمرد جنود المرتزقة و عرف بالثورة الاجتماعية اندلعت فيما بين سنوات 241_237 قبل الميلاد لكن تم القضاء على تلك الثورة و قتل قادة الجنود المرتزقة و كل من ساعدهم غير أن المصادر صمتت عن التحدث و الإشارة إلى نوعية العلاقات التي سادت بين القرطاجيين و أتباعهم من المحليين بعد إخماد تمرد جيش المرتزقة ،ووقعت هذه التظاهرات عقب انقضاض الحرب الرومانية وعوض أن تنصفهم الحكومة اعتبرتهم عصاة وانتدبت قائدها المظفر هميلكار* لصرفهم عن العاصمة ووقايتها من بأسهم فتقدم إليهم ما أوتيه من حزم وعزم وما زال بهم يروضهم حتى صرفهم إلى جزيرة شريك بن قرة ثم تبعهم بمن كان حوله من الجنود الموالين للحكومة إلى أن هبطوا إلى خنقة حجاج فضرب عليهم نطاقا من الحصار وقطع عنهم ورود المدد والميرة**ولم يزل محاصرا لهم حتى هلك خلق منهم بالجوع والعطش ومن بقي أعمل في رقبته السيف[1].

حدثت هذه الواقعة وهي أدل ما يكون على القساوة من طرف الحكومة وقلة اكتراثها بالشعب فكانت وبلا عليها فقد جفاها الوطنيون وغضبوا عليها ، ومن منهم لا يجفو ولا يغضب ؟ فقد تركت في كورة مناحة ، وفي كل منزل لوعة ، وفي كل قلب جرحا نغارا يدعو إلى الثأر والانتقام لأولئك الشهداء الذين ذهبوا ضحية الاستبداد القرطاجي ، و لم يلبث هميلكار بعد أن دبر تلك الواقعة الشنعاء أن أدرك بفطنته مغبة ما سيتلوها من كوارث إن لم يتعجل بتهدئة النفوس وإصلاح الحال وذلك باسترداد ولاء الشعب الهضيم وتعديل النظام الذي يعتبر أصحاب البلاد نفاية لا حق لهم فيها ، ولما أحس منه المجلس بهذا السعي توجس منه شرا وسعى في إحباطه ، وقرر أن يتخلص من هميلكار بإقصائه عن البلاد فأمر بإخراجه مع الجيش لفتح إسبانيا حماية لامتيازات المتفوقين ،وهكذا يعمي الحرص أعين البصراء عن رؤية الحقائق الساطعة ، ويذل أعناق الرجال ولو قدر النجاح لمشروع هميلكار لبقيت أوروبا الطاغية اليوم مستعمرة أبدية لشمالي إفريقيا[2].

---

* Amilcar أو Hamilcar ويدعى (برقا) (نحو 290 – 229 ق.م) هو أب حنبعل : حارب الرومان الرومان في الحرب البونيقية الاولى

** أي الطعام – يقال ماره يمورهُ إذا أتاه بميره أي الطعام (لسان العرب لابن منظور).

(1) عبد العزيز الثعالبي ، مقالات في التاريخ القديم ، المرجع السابق ، ص : 24.

(2) المرجع نفسه ، ص ص : 24 – 25.

ويظهر ضعف السيطرة القرطاجية على الأرض الإفريقية بأكثر وضوحا في معاهدة سنة 201 وما لها من عواقب ، فمن المعرف أن سكيبيون قد اعترف لقرطاج بملكية الأقاليم الواقعة شرق " الخنادق الفينيقية " ، لكن ماسينيسا كان مخولا له أن يطالب ، في نطاق تلك الحدود ، بالأراضي التي كانت تعود إلى أسلافه ، وقد احتج الملك الماسيلي بهذا البند ، الذي اتضح أنه كان السبب الحقيقي وراء الحرب البونيقية الثالثة ، و لقد بين ش . سومان بوضوح أن ماسينيسا استعمل الحجج القانونية الدامغة بإثبات أن قرطاج لم تحز أقاليمها تلك إلا بالغصب ، وأن ليس لها من حق في تملكها (Proprius ager) ، وأن هذا التملك يقوم في أصله على أساس غير مشروع ، فيمكننا القول بلغة اليوم أن ماسينيسا قام بالتنديد بالاستعمار[1].

ولكن يجب أن ألا نقتاد بوهم المقارنات التاريخية ، فهذا النوميدي قد كان كذلك بونيقيا ، ولم يكن يختلف لا جسمانيا ولا ثقافيا عن خصومه القرطاجيين ، فقد كانت تجري في عروقه دماء قرطاجية ، فقد ما كانت تجري في عروق هانيبال دماء إفريقية ، ولقد كان التداخل بين ما نعتقد أنهما عالمان متواجهان من القوة أن كنت تجد حزبا نوميديا في قرطاج في مطلع القرن الثاني ، و لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا العلائق الكثيرة التي نسجت بين القادة الإفريقيين والأرستقراطية القرطاجية عن طريق الزواج ، فقد حفظ لنا التاريخ في ما لا يزيد عن جيلين ذكريات للعديد من الزيجات أو الوعود بالزواج بين الفريقين ، فهذا هاميلكار Hamilcar قد وعد بإحدى بناته لناراقاس Naravas خلال حرب المرتزقة* ، وهذا أوزالسيس Ozalces ، عم ماسينيسا قد تزوج من ابنة أخ لهانيبال ، ونعرف بالمصير المأساوي الذي كان من نصيب سوفونيسب Sophonisbe** وان ماسينيسا الذي نشأ ، حسب ما ذكر أبيانوس ، في قرطاج ، قد زوج إحدى بناته لرقطاجي أنجب منها ولدا سمي أدهربال Adherbal♦ ، وليس من

[1] غابرييل كامب ، البربر ذاكرة وهوية ، المرجع السابق ، ص ص : 189 - 190.

* نسبة إلى " المرتزقة " الذين جاء بهم ناراقاس ، وحارب بهم إلى جانب القرطاجيين ، وقد طالت هذه الحرب من 239 إلى 241 ، وسفكت فيها دماء كثيرة .

** فقد انتحرت بعد إرغام أبيها لها على الزواج من سيفاقس ، بدلا من ماسينيسا لمهاجمته سيرتا واتخاذه لها عاصمة لنوميديا (204 ق.م).

♦ أدهربال فهو ابن مسيبسا وحفيذ ماسينيسا.

باب الصدفة أن يكون الأمراء والقادة البربر قد اعتبروا قرطاج طوال قرون بمثابة العاصمة لهم ، وأن الأسر الملكية [البربرية] كانت تسعى في الاقتران ببنات الأرستقراطية البونيقية ، اللائي جئن [البربر] ، مع عطورهن ومجوهراتهن ، بآلهة صور وسياسة قرطاج ، فما هم أن تكون هذه السياسة فشلت في الأخير ، فما كانت إفريقيا قط بونيقية بالقدر الذي صارت عليه بعد التخريب الذي وقع [على قرطاج] في سنة 146 ، وقد ترك لنا التاريخ ، الذي يولي اهتماما إلى الرموز ، صورة لأبناء ماسينيسا وهم يستلمون من يدي سكيبيون إميليان المخطوطات التي تم تخليصها من النيران عربونا ماديا للإرث الروحي لقرطاج ، ولم يكن التنافس بين الماسيليين وقرطاج يزيد كثيرا في شراستة وعنفه عن التنافس الذي كان بينهم والماسيسيليين أو التنافس الذي قائما بين المدن ذات الأصول الفينيقية[1].

ولو أن عداوة حقيقية وطويلة كانت قد دامت بين قرطاج والإفريقيين ، كما توحي بها قائمة الحروب والتمردات التي استجمعها س . كسيل من المؤلفين القدامى لما أمكن أن نفهم كيف كتب البقاء لبلدات بونيقية صغيرة ، و لو كانت محاطة بأسوار في سلسلة طويلة و ضعيفة بطول الساحل النوميدي والموري ، ونحن لا نعتقد أن ما كان [من الفينيقين على البربر] سيطرة محققة ، بل نعتقد أن ما كان [بينهما] نسيج فضفاض من العلاقات بين ثلاثة أقطاب : المستودع القرطاجي (أو المدينة الفينيقية القديمة الخاضعة لقرطاج) ، والحاضرة البونيقية ، والممالك المحلية[2].

(1) غابرييل كامب ، البربر ذاكرة وهوية ، المرجع السابق ، ص : 191.
(2) المرجع نفسه ، ص : 191.

المبحث الرابع : الصراع الديني

الفينيقيون هم أحد الشعوب السامية، نسبة إلى ابن نوح ، أصلهم من فينيقيا في لبنان الحالية، وكانوا بحارة مهرة استقروا على السواحل المتوسطية، شيدوا قرطاج في تونس الحالية وتعاملوا مع سكانها وتزاوجوا معهم وربطتهم علاقات ، وإن الوثائق المتأتية من الفينيقيين والبونيين حول ديانتهم جد نادرة ، وتتمثل في معلومات مقتضبة ومستنبطة من النقائش المنذورة ، و لكن هذه المعلومات المتفرقة والمجزأة والممتدة على طول الألفية الأولى ق.م لا تسمح بأكثر من معرفة أسماء الآلهة ومسح عام حول العبادة ، سواء في قرطاجة أو في العالم البونيقي ، وحتى وإن كانت هذه النقائش أكثر عدد وتمتد على فترة أقصر[1].

فلم يكن عظيما جدا ، ولئن أخد بعض البربر عن قرطاجة عبادة بعل وتانيت (القمر) وشاركوا في إقامة الحفلات الدينية بالهياكل ، واخذوا عادة تضحية النفوس البشرية تقربا بالآلهة ، فإن أغلبية البربر ظلت محافظة على عوائدها الدينية العتيقة : عبادة الأحراش والغابات والقوى الطبيعية والجن ، ولا تزال هذه العادات قارة في النفوس البربر إلى اليوم ، رغم مرور عصر المسيحية واستقرار أحكام الإسلام[2].

و يمكن تقسيمها إلى مرحلتين بحسب أثرهما على ديانة الطرفين:
ما قبل حرب هيميرا في القرون الأولى من حياة قرطاج لم تكن هناك علاقات قوية بين الليبيين والفينيقيين، استمر فينيقو قرطاج بعبادة آلهتهم الأصلية خاصة بعل وعشتارت ، واستمرت هذه العبادات الأصلية إلى وقوع ما يعرف بحرب هيميرا بحيث هزم القرطاجيون بسهولة ضد الإغريق، وبعد معركة هيميرا بعد هزيمتهم أمام الإغريق، بدأ القرطاجيون بتغيير علاقاتهم مع الليبيين، بعدها سيصبح للأمازيغ دور فاعل في قرطاج بحيث تستفيد قرطاج من الجيش الليبي الذي سيكون قوة ضاربة في جيش هنبعل، إلى

---

[1] أحمد الفرجاوي ، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة ، المعهد الوطني للتراث (المجمع التونسي للعلوم والآداب بيت الحكمة) ، تونس ، 1993 ، ص : 161.
[2] أحمد توفيق المدني ، قرطاجنة في أربعة عصور " من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي " ، المرجع السابق ، ص : 35.

جانب هذه التغيرات العسكرية تم تغيير الحكم في قرطاج كما اكتسحت المعبودات الليبية المعتقدات القرطاجية، فبعد إن كانت عشتارت ربة عظيمة في قرطاج استبدلت بربة ليبية اسمها تانيت وهي ربة تمتعت بنفوذ واسع، وكان القرطاجيون يقدمون لها أبناءهم تقربا إليها خاصة الفقراء منهم ، أما بعل كبير آلهة الفينيقيين فقد دمج مع آمون كبير آلهة الليبيين وهو ما أصبح يعرف باسم بعل–حمون ، يذكر أن بعض الأسماء النوميدية والفينيقية كانت تتكون جزئيا من اسم بعل ك: "أدهربل" و"حنيبعل"[1].

و الذي يبرز لنا ذلك الامتزاج فيتمثل لاسيما في عبادة كل من المغاربة و القرطاجيين للإلهين بعل حمون و تانيت بني بعل، و تعتبر هذه الأخيرة عند بعض المؤرخين إلهة مغربية تقابل الإلهة عشتار السامية في شرق المتوسط ، كذلك يستدل من وجود رسوم الكبش الذي يحمل على رأسه دائرة تشير إلى قرص الشمس و التي وجدت في الرسوم الصخرية و كذا رسوم الخراف و الثيران التي وجدت في بعض أنصاب قرطاجة وسيرتا و حدرومات (سوسة) على مدى استمرار العبادة المغربية القديمة العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ و تعايشها مع العبادة السامية و هي ظاهرة تدل على الامتزاج الديني بين القرطاجيين و المغاربة القدماء ، و لعل من بين مظاهر الامتزاج الأخرى الفينيقية المغربية نشير إلى مظاهر الدفن و نوعية المقابر و الهدايا الجنائزية التي وجدت بالقبور الحجرية كالحوانيت والدولمن التي وجدت معظمها في مجال التأثير القرطاجي البوني، و العنصر الهام الذي يساعدنا على معرفة ذلك الامتزاج هو وجود الكسر و الأواني الفخارية المغربية–البونية منتشرة في تلك المواقع الأثرية لاسيما في كل من جيجل (ايجيلجليIgilgili) و تيبازة بالجزائر وليكسوس بالمغرب الأقصى[2].

---

(1) محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، مؤسسة توالت الثقافية ، 2010 ، ص : 203.

(2) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، تاريج الجزائر العام ، ج1 ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2010 ، ص : 89

و ما كان الدين نفسه استثناء من هذا التدخل ، ولا كان استثناء من هذا الامتزاج للعالمين الإفريقي والمشرقي ، فالتفكير يذهب بنا عند النوميدين في المقام الأول إلى الانتشار الكبير الذي تحقق لعبادة بعل حمون Baal Hammon ، فأصبح [لديهم] هو ساتورن Saturne الإفريقي في العهد الروماني ،كما يذهب بنا التفكير إلى عبادة تانيت Tanit- أو بالأحرى تينيت Tinit – وهي المطبوع اسمها بنبر بربري ، وحتى في الديانة الشعبية ، بل الريفية ، هنالك آلهة أو جن محليون سموا في ما بعد بالآلهة المورية ، ولم يطونوا ، بخلاف المتوقع ، يحملون دائما أسماء ليبية[1].

ولقد ظلت إفريقيا تسبح طوال قرون في جو يغلب عليه الطابع الديني السامي والبونيقي ، مختلف عن المعتقدات الإيطاليانية البالية وعن الإضافات الهلينستية ، وإن ما لا عد له من المسلات المكرسة لساتورن لتقوم شواهد على هذه الحقيقة ، سواءا بمحتواها الايقوني ، أو بما تحمل من تكريسات موجهة إلى الإله الإفريقي[2].

ويطالعنا التفاعل نفسه بين الممارسات الشرقية و الإفريقية في الديانة المقابرية ، فهذه الدلمنات ، وهي الكثيرة في البلدان النوميدية الشرقية (شرق الجزائر ووسط تونس) ، قد عرفت تحولا معلوما صارت به قريبة إلى الكهوف ذات الطراز البونيقي الجديد ، فإن فيها مشاكي جانبية ، أو تقويم مقام رأس السرير ، قد حقرت في الجدران على غرار ما في القبور البونيقية ، وجعلت فيها مزاليق على جانبي الغطاء لأجل الحاجز الوقائي ، وبين الحوانيت ، وهي مدافن باطنية محفورة في جوانب الجرف الصخرية ، التي أخذ بها الإفريقيون بمنأي عن أي تأثير قرطاجي ، توجد في القبور الأقرب عهدا مقاعد وأسرة مقابرية محفورة في الصخور ، ولا ينبغي لنا أن نفسر التحولات التي طرأت على القبر البونقي ، فصيَّرته من الغرفة ذات البئر المنطمرة عميقا إلى القبو المفتوح نصفه ، بسيرورة داخلية فحسب ، بل ينبغي أن نردها

(1) أحمد الفرجاوي ، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة ، المرجع السابق ، ص : 167.
(2) المرجع نفسه ، ص : 169.

كذلك إلى الحرص على توفير مدخل مسير للغرفة المقابرية ، وهو شيء نرى ما يؤكده في جميع الآثار قبيل التاريخية لقدامى البربر ، وهذا الاختيار الأساسي والحيوي المتعارض مع الاهتمامات الأقدم للقرطاجيين ، والمرتبط بكل تأكيد ببعض المعتقدات الدينية [البربرية] ، نراه جليا في الممرات الكثيرة وفي الأروقة ، وبعضها لا يزيد عن أن يكون رمزيا ، وفي المشاكي والمصليات المرافقة للقبور، وعملية حرق الأموات ، التي كانت تجري بصورة غير منظمة في قرطاج ، خاصة منذ القرن الخامس ، كانت شيئا مجهولا لدى نوميديي الشرق ، وقد أدخلت هذه العملية إلى المدن الساحلية ، وصارت تعمل بها الأسر الأميرية ، وليس يبعد أن يكون القبر الذي في الخروب ، وهو جثوة كبيرة بالقرب من المدراسن ، كما لا يبعد أن تكون مقبرة المدراسن نفسها ، يحتويان على مدافن للحرق[1].

و في نماذج لتماثيل (بعل) في متحفي (دمشق وبيروت) وجدت هيئة بعل في حوالي 1900 ق.م ، يمد اليد اليمنى للأمام واليد اليسرى إلى الأسفل ، ويعتمر غطاء للرأس ، مع انف على شكل منقار وجسد نحيل ، ويظهر معه ثور أو أسد في بعض النماذج ، لكن في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، تخلى (بعل) عن مساعدة الثور أو الأسد ، وبدا بشكل قاسي ويحمل وجه شيطاني ويرفع يده اليمنى للأعلى ويمد اليد اليسرى للأمام وعيون غائرة أو جاحظة وفم مفغور ، وهذا النموذج موجود في متحف (حلب) من الحضارة الأوغاريتية ، وهذا النموذج يبقى مستمرا للنهاية[2].

تكثر الأساطير عن صراع (بعل) مع (يم) ، وأسطورة دعوة (بعل) لـ (عناة) لزيارته للكشف عن سر الطبيعة ، وأساطير صراع مع القوى السفلية ، وصراعه مع (شليط) و (عتك) و (إيل) و (إشت) والكثير من الأساطير التي تغلغلت في التراث الشعبي في المنطقة ، وانتقلت إلى إفريقيا[3].

---

[1] غابرييل كامب ، البربر ذاكرة وهوية ، المرجع السابق ، ص ص : 194 - 196

[2] محمد ابو المحاسن عصفور ، المدن الفينيقية ، درا النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، 1981 ، ص : 145.

[3] المرجع نفسه ، ص : 148.

حمون من أكثر الآلهة غموضا ، ففي حين أنه كان إله (حماة) إلا أنه وجد أنه الإله الوحيد عند البربر في شمال إفريقيا قبل قدوم الكنعانيين (الفينيقيين) إليها ، وكان يسمى (حمون المباخر) أو (سيد المباخر) وقد أقترح العلامة (ستاركي) تفسيرا لذلك ، معتمدا على وجود أنصاب كثيرة له في شمال إفريقيا ، ويقدم فيها البخور وهناك من يعتقد أنه إله مصري وهو نفسه (آمون) [توت عنج آمون]، ويذهب أصحاب هذا الاعتقاد إلى أنه وجد في واحة (سيوه) معبدا (لأمون) وكانت هيئته كبش يحمل الشمس بين قرنيه وهو نفس الشكل الذي وجد له في ليبيا وعند البربر[1].

تانيت إلهة قديمة جلبت لشمال إفريقيا في الألف الثاني قبل الميلاد ، ويعتقد أنها (عناة) وهي إلهة معروفة بالمشرق ، والعراق ، وهي (إناتا) والبربر يقدمون تاء التأنيث على الأسماء فأصبحت (تاناتا) وهي الإلهة التي وجدت على نقوش فخارية في مصر قبل (الفراعنة) ويذهب البعض إلى أنها نفسها (أثينا) الإلهة اليونانية ولكن أصلها (سومري) قديم وهي إلهة الأمومة والخصوبة عند البربر ، وزوجها عند البربر هو الإله (بعل حمون) ، وقد ظلت عبادتها قائمة للقرن الثالث الميلادي ، وتأثرت إسبانيا و أوروبا بعبادتها حيث بنا لها القيصر (سبتموس سفيروس) وهو من أصل إفريقي معبدا في روما[2] .

إشمون هو إله النار وهو إله صيدا... وقد عبد هذا الإله في بيروت وقرطاج وقبرص وسردينيا وشمال إفريقيا ، وكان اسمه في مدينة صور اللبنانية (ياسومون) وهو إله الطب عند أهل صور وقد أعطى اسمه لزهور (الياسمين) وقيل أن (إشمون) هو (شامون) ويعني الإله الثامن من حيث ترتيبه بين أخوته[3] .

(1) الشادلي بورونية ، محمد الطاهر ، قرطاج البونية " تاريخ الحضارة " ، مركز النشر الجامعي ، الاسكندرية - مصر ، 1999 ، ص : 275.

(2) المرجع نفسه ، ص : 277.

(3) المرجع نفسه ، ص : 298.

المبحث الأول : لمحة عن الحضارة اليونانية

تقع اليونان جنوب شرق القارة الأوروبية، وهي بكثرة خلجانها وجبالها قسمت البلاد إلى وحدات صغيرة وكثيرة، وجعلتها برية وبحرية في آن واحد، وأهمية تاريخ اليونان ليس من الناحية السياسية، بل في تراثهم الثقافي على الأكثر، أي تاريخ حضارتهم[1]، يمكننا تقسيم اليونان إلى أربعة عهود رئيسية، هي :

- **عهد الملوك** (**1100–750 ق.م**) : ويمكننا تقسيمه إلى دورين :

دور الاستقرار، وفيه خاضوا عدة حروب ضد السكان الأصليين ومنهم الإيجيون، وأسسوا عدة مدن، كان على رأس كل منها ملك، فهو قائد الجيش وكاهن الشعب الأكبر، أما الدور الثاني، فهو دور اقتباس الحضارة من الأمم المجاورة لهم، فمن الفينيقيين اقتبسوا الحروف الهجائية والورق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ومن الإيجيين اقتبسوا صناعة الأواني والفخارية المزركشة، ونظر لكثرة حروبهم إما ضد بعضهم أو الأمم المجاورة لهم طوروا أسحلتهم[2].

-**عهد الإقطاع** :

في هذه المدة ظهرت طبقة ملاكي الأراضي الواسعة، وتجمعت الثروة بيدهم لذلك هاجرت الطبقة الكادحة إلى الخارج، واهتمت بالتجارة بعد أن تعلم أفرادها إنشاء السفن على الطراز الفينيقي، كما دخلوا عدة حروب في حوض بحر إيجة والأبيض والأسود، وأسسوا لهم عدة مستعمرات مثل قبرص وسيدة السفن)قرب الإسكندرية(وقيرين)طرابلس الليبية(وجنوب إيطاليا الذي دعوه بلاد الإغريق الكبرى، وصقلية، وانتشار الإغريق تولد عنه رواج التجارة والصناعة، مما أدى إلى تغيير الأوضاع الاقتصادية، وبالتالي نظام المجتمع والحكم[3].

[1] علي عكاشة وآخرون ، اليونان والرومان ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1991 ، ص : 33.
[2] محمود درويش مصطفى و إبراهيم السايح ، مقدمة في تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية " تاريخ اليونان " ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، مصر ، 1999 ، ص : 45.
[3] المرجع نفسه ، ص : 45.

– عهد الاستبداد(625–525ق.م) :

كانت ثروة النبلاء مستمدة من الزراعة، ولما توسعت التجارة ونشطت الصناعة تركزت الثروة في طبقة التجار والصناع وتدخلوا في السياسة، وباتوا يهددون بالثورة حكم النبلاء، إلى أن قضوا عليه وقاموا بإصلاحات عديدة في مختلف المجالات لتحسين أوضاع الطبقة العامة، وأشهر هذه الإصلاحات هي: إصلاحات "صولون" لكن الثورات، والاستيلاء على السلطة بالقوة كان الطابع العام لهذه الفترة إلى أن اهتدى أهل أثينا (كليشينير) إلى طريقة الاقتراع العام، لنفي أخطر شخص على سلامة الدولة، فكان هذا بداية الحكم الديمقراطي، الذي اتضح بصورة خاصة في عهد "بريكليس" 414–434ق.م، على أننا لا ننكر بأن بعض المدن حافظت على الحكم الاستبدادي مثل إسبارطة[1].

– عهد الإمبراطورية:

كان اليونان ومستعمراته عبارة عن دويلات (دول المدن) لكل مدينة نظامها الخاص، وحاول بعض القادة العسكريين الأثينيين خاصة توحيد هذه المدن في إمبراطورية واحدة وتحت زعامة واحدة، ولتحقيق ذلك دخلت أثينا في عدة حروب دون أن تنجح في تحقيق الوحدة إلى أن ظهر الإسكندر الأكبر، ومن بين هذه الحروب، تلك التي كانت بين اليونان والفرس، وقد استغرقت مدة طويلة استنزفت قوى الجيش، ومن ثم تشجعت أثينا التي كانت أكبر دول (مدن) اليونان على توحيد أجزاء الإمبراطورية، لكنها اصطدمت مع إسبارطة (منافستها)، ودخل الجانبان في عدة حروب كان النصر في أغلبها لإسبارطة وحلفائها،لكن النزاع استمر بين الطرفين إلى أن ظهر على مسرح السياسة العالمية "اسكندر المقدوني" الذي تمكن في مدة 14سنوات من تأسيس إمبراطورية كبيرة امتدت من اليونان إلى الهند بما في ذلك الشام ومصر والعراق ، وقد تزوج بأميرة عراقية، واتخذ بابل عاصمة له أثناء عودته من الهند، لكنه سرعان ما توفي سنة 323ق.م في بابل، ونقلت جثتاه إلى الإسكندرية بمصر[2] ، وبعد وفاته نشبت عدة ثورات وخصومات على الملك أدت إلى تقسيم إمبراطوريته إلى ثلاثة أجزاء:

---

(1) علي عكاشة وآخرون ، اليونان والرومان ، المرجع السابق ، ص : 38.
(2) المرجع نفسه ، ص : 39.

أ–منطقة مقدونيا في أوروبا: وقد أصبحت من نصيب البيزنطيين في ما بعد إلى القرن 15م حيث أصبحت من ممتلكات الدولة العثمانية.

ب–مملكة الشام: وأصبحت من نصيب البيزنطيين إلى الفتح الإسلامي.

ج–مملكة مصر: وأصبحت من نصيب البطالمة فالبيزنطيين إلى الفتح الإسلامي(1).

ساعد اتصال اليونانيين بحضارات الشرق على اقتباس بعض مظاهر هذه الحضارات فقد تأثروا بحضارة العراق، البابلية، وحضارة مصر، وحضارة الفينيقيين، وحضارة الإيجيين، وتتمثل لنا الحضارة اليونانية فيما يلي:

كان اليونانيون بدائيين، لكن اختلاطهم بالفينيقيين أدى إلى تعلمهم الخط الفينيقي– منذ القرن 6ق.م، ومن ثم أخذت علومهم تتطور إلى أن أصبحت راقية، وبصورة خاصة في أثينا، فاشتهروا بالرياضيات، ووضع "بيتاغور" نظريته المشهورة، كما نبغوا كذلك في الفلك، والطب، وبزوا غيرهم في الفلسفة، وأشهر فلاسفتهم "سقراط" و "أفلاطون"، ولعل اليونانيون توصلوا إلى الفلسفة عندما حاولوا معرفة الحياة، و التعمق في أسرار الكون، وذلك بالتفكير وطرح الأسئلة: لماذا؟ وكيف؟(2).

واشتهر اليونانيون كذلك بالتاريخ والجغرافية، ومن أشهر مؤرخيهم "هيرودوت" الملقب بأبي التاريخ ، ويبلغا اليونانيون في العمران والفن درجة راقية، وكان للانتعاش الاقتصادي والرقي العلمي أثر عظيم في تقدم الفن العمراني عندهم، وأشهر آثارهم الخالدة "هيكل الأكروبول" في أثينا، كما تتضح لنا قيمة الفن اليوناني في نحت التماثيل التي خلدت لنا الكثير من أبطالهم(3).

(1) محمود درويش مصطفى و إبراهيم السايح ، مقدمة في تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية " تاريخ اليونان " ، المرجع السابق ، ص : 67.

(2) ف. دياكوف ، س . كوفاليف ، الحضارات القديمة ، المرجع السابق ، ص : 263.

(3) المرجع نفسه ، ص : 264.

كـــان المجتمـــع اليونـــاني مقســـما إلى عـــدة طبقـــات، وتختلـــف أهميـــة هـــذه الطبقـــات بـــاختلاف الرقـي الفكـري والانتعـاش الاقتصـادي مـن مدينـة لأخـرى، ففـي أثينـا الـتي كانـت تتمتـع بنـوع مـن الديمقراطيـــة في ذلـــك العصـــر (القـــديم) نجـــد مجتمعهـــا مقســـما إلى ثـــلاث طبقـــات متميـــزة عـــن بعضها البعض:

- المواطنون الأثينيون في الأصل.

- المستوطنون، وهم القاطنون في أثينا وليسوا من أبوين أثينيين.

- طبقة العبيد والأسرى[1].

وبخصـــوص الأســـرة اليونانيـــة، فهـــي تتمتـــع بحريـــة واســـعة، ولـــلأب الســـلطة العليـــا، فهـــو كاهنها الأكبر، وعندما يموت تعبد روحه، وكان الزواج يعد في منزل العروس أولا ثم في منزل العريس، كما كانوا مولعين بالألعاب الأولمبية وخصصوا لها ملعبا خاصا، وكانت ديانة اليونانيين وثنية، فقد عبدوا آلهة وأنصاف آلهة، وهي عبارة عن تشخيص لقوى الطبيعة أو الأبطال الذين قاموا بأعمال مجيدة خلدت ذكرهم، وكان لكل مدينة أو قرية،بل لكل أسرة إلهها و أعيادها الدينية الخاصة بها، ومع ذلك فهناك آلهة اشتهرت وأصبحت تعبد من مختلف اليونانيين، وأشهرها: "زيفيس" رب السماء والآلهة والبشر عامة، وموطن الآلهة هو جبل أولمبس المغطى بالثلج[2].

[1] ف. دياكوف ، س . كوفاليف ، المرجع السابق ، ص : 271.
[2] حسين الشيخ ، دراسة في تاريخ الحضارات القديمة " اليونان " ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية – مصر ، ص : 77.

المبحث الثاني: لمحة عن الحضارة الرومانية

هاجرت عدة قبائل إلى شبه التي عرفت فيما بعد بإيطاليا، منذ القرن 14ق.م، وأهم هذه الجماعات في تاريخ شبه الجزيرة هم: الإيطاليون، واليهم نسبت شبه الجزيرة، ثم اللاتينيون واليهم نسبت اللغة اللاتينية، ثم اليونانيون والقرطاجيون الذين سادوا على تمدين الرومانيين ، حيث أسس السكان ممالك صغيرة ودخلوا في عدة حروب محافظة على كيانهم ورغبة في التوسيع، لكن بذور الإمبراطورية الرومانية يرج تاريخها إلى تأسيس مدينة روما 053(ق.م)التي أسسها اللاتينيون من الخشب، ومع مرور السنين تحولت إلى مدينة مهمة سرعان ما ترأست كافة المدن الأخرى، واتخذت عاصمة للإمبراطورية –ولا تزال ليومنا هذا عاصمة لإيطاليا–لكن الأساطير الرومانية ترى بان مدينة روما تأسست في حدود سنة 053ق.م، وان الذي أسسها هما الأخوان التوأمان: روميللوس، وريموس[1].

ولاحظت روما تلك الحروب التي تحدث بين جيرانها فحاولت تطويق مدينتها بسور منيع للمحافظة على كيانها واستقلالها، فراع ذلك جيرانها واتحدوا على محاربتها ولكنهم هزموا أمام قوة روما، التي أخذت منذ ذلك التاريخ تسلط نفوذها بصورة تدريجية على المناطق المجاورة لها ثم بلاد إيطاليا الوسطى، وامتد نفوذها إلى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية في منتصف القرن الثالث ق.م، وبذلك أصبحت تطل على البحر المتوسط ومن ثم اصطدمت مصالح الرومانيين بمصالح القرطاجيين، وعقدت معاهدة عدم اعتداء بين الطرفين، لكن روما لم تلبث أن احتلت صقليا، بل لقد استغلت انشغال قرطاجة بإخماد جيش المرتزقة واحتلت كورسيكا وسردينيا، فهذه الانتصارات التي أحرزت عليها روما أثارت حقد القرطاجيين ودخلت الدولتان في حروب طاحنة عرفت بالحروب البونيقية [2].

---

[1] محمود إبراهيم السعدني ، حضارة الرومان " منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي " ، عين للدراسات والبحوث الجامعية ، ط1 ، 1998 ، ص : 39

[2] مونتسيكو ، تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط ، تر : عبد الله العروي ،المركز الثقافي العربي ، ط1 ، الدار البيضاء – المغرب ، 2011 ، ص ص : 37 -39.

وأدت عدة أسباب إلى القضاء على الحكم الجمهوري الذي دام من القرن السادس، من سنة 541ق.م إلى سنة 30ق.م، وقيام النظام الإمبراطوري الذي دام إلى سقوط روما في الغرب سنة 401ق.م، وفتح القسطنطينية سنة 1453م في الشرق، ويبدأ النظام الإمبراطوري بتغلب يوليوس الذي لم يلبث أن استولى على السلطة، لا في روما فحسب، بل في كل أنحاء الإمبراطورية، وقضى على خصومه ولقب بالدكتاتور، وأصبح تمثاله يحمل مع تماثيل الآلهة في الاحتفالات الرسمية ، وبعد اغتياله تولى السلطة "أكتافيوس" الذي انتصر على حاكم الرومان في الشرق واضطره إلى الانتحار مع صديقته كليوباطرة ملكة مصر، وبذلك دخلت هذه تحت الاستعمار الروماني سنة 34ق.م، ومن ثم لقب بأغسطس والإمبراطور وهو واضح أساس النظام الوراثي في الإمبراطورية[1].

عاشت الإمبراطورية الرومانية بعد مؤسسها حوالي خمسة قرون (34ق.م- 401م) وكانت في القرنين الأولين ثابتة الأركان موطدة الدعائم، إذ امتدت في عهد أ غسطس من نهري الراين والدانوب شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وفي القرن الثالث الميلادي بدأ الانهيار والتفسخ يدب في الإمبراطورية وتسير من سيء إلى أسوأ، وانتهى بسقوطها على يد البرابرة الجرمان في القرن الخامس الميلادي (401م) بينما ثبت في الشرق القسطنطينية إلى الفتح العثماني سنة 1453م[2].

جدول يمثل مراحل الحكم الروماني		
753-508 ق.م	508 – 30 ق.م	30 ق.م – 476 م.
النظام الملكي	النظام الجمهوري	النظام الإمبراطوري

(1) محمود إبراهيم السعدني ، حضارة الرومان " منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي " ، المرجع السابق ، ص : 55.
(2) المرجع نفسه ، ص : 67.

للإمبراطورية الرومانية أثر لا ينكر في حوض البحر الأبيض المتوسط سياسيا وحضاريا، أما من الناحية السياسية، فذلك لأن الرومان تمكنوا من بث سيادتهم على ممالك عديدة واستعمروها وجعلوا منها ولايات تابعة لروما في الغرب أو القسطنطينية في الشرق (قبل انفصالها.) ، أما من الناحية الحضارية، فالرومان كانوا امة متخلفة قبل اتصالهم بحضارة القرطاجيين واليونانيين، وبعد احتكاكهم بهذه الحضارات أخذوا بأسباب المدنية والرقي، ويمكننا حضر مظاهر الحضارة الرومانية فيما يلي:

كان الرومان في أول أمرهم يحكمهم ملوكهم، إلى أن انشئوا جمهورية قوامها دولة المدينة على غرار اليونان في سنة 541ق.م، حيث تخلصت روما من الحكم الأتروسكان الملكي، وأصبحت السلطة منذ ذلك الوقت مقسمة بين السلطة التنفيذية وهي بيد القنصل وينتخب لمدة سنة من قبل المحاربين فقط، والسلطة التشريعية وكانت بيد مجلس الشيوخ وهو من النبلاء كذلك، وعليه نقول بان السلطتين كانت بيد النبلاء دون الشعب ، لذلك قامت عدة اضطرابات انتهت بالقضاء على الجمهورية وإعلان الإمبراطورية منذ سنة 30ق.م، حيث أصبحت السلطة المطلقة بيد الإمبراطور فهو مؤسس الدولة، والقائد العام للجيش، وبساعده عدة موظفين في العاصمة، والولاة أو حكام الولايات ، وهؤلاء يعينون بدورهم موظفين لمساعدتهم في إدارة الولايات، وهكذا نشأت طبقة الموظفين في الإمبراطورية الرومانية[1].

أما الجيش فقد اعتنت به الدولة وبأسلحته عناية فائقة، لكنه بقدر ما كان عاملا قويا في توسيع الإمبراطورية والاستعمار فإنه كان معولا لبث الاضطرابات والقلاقل في الدولة نفسها ، أما كبار الموظفين فقد تدخلوا في السياسة وأصبح همهم الاستيلاء على السلطة أو تقسيمها، أو على الأقل عزل الإمبراطور الذي لا يرضيهم وتعيين من يشبع رغباتهم العديدة[2].

---

[1] علي عكاشة وآخرون ، اليونان والرومان ، المرجع السابق ، ص : 140.
[2] شارل سنيوبوس ، تاريخ الحضارات العالم ، المرجع السابق ، ص : 151.

ومن أهم تراث علمي الذي خلفه لنا الرومان هو القانون الروماني الذي لا يزال يدرس في كليات الحقوق، وبدأت القوانين الرومانية على هيئة مجموعة من العرف والعادات المصطبغة بالصبغة الدينية، وأقدم القوانين الرومانية دونت سنة 454ق.م(في عهد الجمهورية)، ووضعت صيغتها النهائية في عهد "جستنيان" في القسطنطيني بعد مدة من سقوط روما، أما بقية العلوم فهي تطور للعلوم الهلنستية، وهي مزيج من العلوم الإغريقية وعلوم الشرق القديم[1].

واقتبس الرومانيون الكثير من الفن المعماري من الشرق والإغريق وطوروه، فاعتنوا بشق الطرق الطويلة لربط أمهات المدن بواصم الولايات، كما اعتنوا ببناء الجسور الضخمة على الأنهار هذا علاوة على المباني التي خلفوها في العاصمة وفي أمهات مدن الأقاليم، وهي تنحصر في المعابد والمؤسسات الرسمية ومن أشهرها "الفوروم" وبنايات المسارح ومدرجات الألعاب ، ومنها ما يعرف الآن باسم "الكولوزيوم" في روما، وهو من أروع ما خلده الرومان ، ومع اختلاف هذه المباني في الوظيفة والغاية، فإنها كلها تتصف بالتناسق الفني، وهذا ما يتضح لنا مثلا في البناية الضخمة المعروفة البنثيون، ويتضح لنا في النحت بصورة خاصة: (الآلهة والأباطرة والعظماء، وغيرهم)[2].

[1] علي عكاشة وآخرون ، اليونان والرومان ، المرجع السابق ، ص :225.
[2] المرجع نفسه ، ص : 237.

وعاش المجتمع الروماني عيشة تختلف من ولاية لأخرى، ومن الولايات للعاصمة ففي الولايات كانت الطبقة الممتازة تمثل المستعمرين الرومان، أما الشعب ففيه عدة طبقات كلها راضخة للسلطة الرومانية في الولاية، أما في العاصمة (روما) فكانت الأسرة تتمتع بقسط كبير مكن النعيم في معظم الحالات ونظرا لارتفاع مستوى الدخل بات في وسع كل فرد أن ينعم بالرفاهية، فيذهب إلى الملاهي والمسارح والحفلات العامة، أو مشاهدة الألعاب الرياضية[1].

أما المرأة فكانت قبل الزواج تنزوي في بيتها وبعد تنعم بالحرية، لكنها أساءت استعمال حريتها إلى أبعد الحدود فتفشى الطلاق بصورة مخزية وانحلت الأسرة، أما العبيد، فكان لكل منزل عدد كبير، و خصصوا لكل عمل، مهما كان تافها، عبدا يقوم به وكانوا يعاملون معاملة قاسية[2].

عبد الرومان عدة آلهة، أشهرها "جوبتر" رئيس الآلهة التي عبر عنها أحدهم بقوله: "وطننا مملوء بالآلهة حتى غدا وجود إله أيسر من جود رجل ." ، ولما ظهرت المسيحية قاوموها مقاومة عنيفة إلى القرن الرابع الميلادي عندما اعترف قسنطيطين بحرية ممارسة الشعائر المسيحية (سنة315م)، ومنذ ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر أصبحت بظهور الصورة الصناعية والاستعمار الأوروبي وانتشار المبشرين قوة لا يستهان بها، يترأسهم جميعا، روحيا، البابا في الفاتيكان بروما[3].

---

(1) حسين الشيخ ، دراسة في تاريخ الحضارات القديمة " الرومان" ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية – مصر ، ص ص : 179 -180.

(2) المرجع نفسه ، ص : 183.

(3) علي عكاشة وآخرون ، اليونان والرومان ، المرجع السابق ، ص :233.

المبحث الثالث : الصراع السياسي

حروب طروادة وهي أوسعها بيانا وتفصيلا فيروي أنه كان نحو القرن الثاني عشر مدينة عذبة ذات سطوة اسمها طروادة وكانت الحاكمة المتجمعة على شاطئ القارة الآسياوية فجاء أحد أمراء هذه المدينة واسمه باريس إلى أرض اليونان وسبى هيلانة خليلة ميلاس ملك اسبارطة فاتفق اعممنون ملك أرعوس مع سائر ملوك اليونان وأرسلوا لحصار طروادة جيشا يونانيا على أسطول مؤلف من ألف ومائتي سفينة ، فدام الحصار عشرة سنين إذ كان الرب زيفيس راضيا عن الطرواديين عاقدا النصر بولايتهم ، وقد اشترك اليونان كافة في هذا الحصار فقتل هكتور رئيس المدافعين عن حياض طروادة بيد أشيل ، وكان أجمل اليونانيين خالقة وأشجعهم نفسا وجر جثته حول المدينة ، قاتل أشيل بسلاح إلهي وهبته إياه أمه ربة البحر ثم هلك بسهم أصابه في عقبه ، حتى إذا يئس اليونان من الاستيلاء على المدينة بالقوة عمدوا إلى الحيلة فأوهموا أنهم أزعموا الرحيل وتركوا وراءهم حصانا ضخك الجثة من حسب اختبأ فيه زعماء الجيش فأخذ الطرواديون هذا الحصان وأدخلوه مدينتهم فلما جن الليل خرج القواد منه وفتحوا أبواب المدينة لليونان فحرقت طروادة وذبح الرجال واستعبد النساء[1].

ولما قفل زعماء اليونان من عزاتهم هبت عليهم العاصفة فغرق بعضهم في البحر وقذفت بفريق منهم إلى شواطئ بعيدة وكان من حظ عولس أكثر هؤلاء الزعماء شجاعة ودهاء وأطولهم يدا في كيد المكايد أن قضى عشرة سنين تتقاذف به البلاد حتى أدت به الحال أن فقد سفنه جمعاء ونجا من الغرق بنفسه[2].

وبعد فقد كان الاعتقاد بحرب طروادة شائعا في القرون القديمة شيوع الأخبار الثابتة ، فرغم القوم كانت غاية الحصار 1184 وحددوا مركز تلك المدينة ، وقد خطر شليمان من علماء الآثار 1874

---

(1) شارل سنيويوس ، تاريخ الحضارات العالم ، المرجع السابق ، ص : 82.
(2) المرجع نفسه ، ص : 83.

أن يحفر محل هذه المدينة فاقتضى له أن يزيل أنقاض عدة مدائن منضدة بعضها فوق بعض فعثر على عمق خمسة عشر مترا في أعمق طبقة من تلك الأنقاض على آثار مدينة حصينة استحالت رمادا وظفر في الخرائب أهم تلك الأبنية بصندوق مليئ بالحلي من ذهب سماه كبربريام ، وكان تمت نقش وكانت تلك المدينة التي ظهر سورها كله صغيرة، وعثروا فيها على عدد كثير من الأصنام الصغيرة الرديئة الصنع والوضع وهي تمثل ربة لها رأس بومة (وعلى هذه الصورة كان اليونان يمثلون الربة بالاس) ومع كل هذا فليس ثمة دليل يقوم على أن هذه المدينة الصغيرة دعيت باسم طروادة قديما[1].

ومنذ ذاك العهد اكتشف الباحثون في كثير من أنحاء اليونان أشياء كثيرة ومنها أواني خزفية وحلي تشبه خزف ميسينا وحليها وقد عثر في بعض الأحيان بين هذه الدفائن على حلي مصرية من عهد الدولة التاسعة عشرة فاستنتجوا من ذلك بأنه كان في اليونان منذ الزمن العريق في القدم (بين القرن الثامن عشر والخامس عشر ق.م) ، ملوك أصحاب شوكة يستطيعون معها إنشاء مدن حصينة ذات غنى متوسط وتيسر لهم به أن يكنزوا الكنوز ويخفون الآثار النفيسة ، وهذا ما دعي بالتمدن الميسيني[2].

إن التناقض بين النظامين الأثيني والاسبرطي لم يكن ليشكل سببا وحيدا كافيا لإثارة النزاع والصراع بين القوتين اليونانيتين الكبيرتين ، بل لا بد من وجود مبررات أخرى للاحتكاك بين هاتين القوتين ،وقد جاء ذلك نتيجة للتوسع التجاري الأثيني الكبير وتوسعها الصناعي ، فلم تعد منطقة بحر ايجة مجالا حيويا كافيا لها فاتجهت إلى المياه الغربية تبحث فيها عن الأسواق لتصريفها ، فاصطدمت مصالحها بذلك مع المصالح الدول البيلوبنبزية مثل (كورنثه وميغارخ وسيكون) ، وكان فتيل النزاع في جزيرة كوركيره التابعة لكونثه ذات الموقع التجاري الهام والتي تحرص على استمرارها تابعة لها ، لكن خلافا بين سكانها وبين وطنهم الأم كرنثه جعلهم يتجهون إلى أثينا التي وجدتها فرصة سانحة للتدخل وصرب مصالح كورنته ، فانتصرت اسبرطة لحليفتها كورنته ، وبدأت بذلك سلسلة من الصراعات[3].

---

(1) حسين الشيخ ، دراسة في تاريخ الحضارات القديمة " اليونان" ، المرجع السابق ، ص : 49.
(2) المرجع نفسه ، ص : 51.
(3) شارل سنيوبوس ، تاريخ الحضارات العالم ، المرجع السابق ، ص : 97.

وأول هذه العوامل الرئيسة الثلاث هو صراع المدن اليونانية في سبيل الزعامة أو السيطرة على بلاد اليونان ، وقد تم في هذا الصدد عدد من المحاولات ، ولكنها بدلا من أن تؤدي إلى توحيد المدن الوطنية على مستوى وطني يشمل كل بلاد اليونان انتهت بتكريس أو تأكيد النزعة الانفصالية التي لا يتخطى في ظلها مفهوم الحرية أو مفهوم الولاء لدى المواطن اليوناني حدود المدينة التي ينتمي إليها ليصبح هذا المفهوم قيمة تشمل بلاد اليونان بأكملها ، وقد ظهر هذا بشكل واضح لدى المدن القوية التي سعت إلى تزعم بقية المدن اليونانية ، فاتخذت زعامتها صور السيطرة التي تضخم نفوذها ومصالحها من جهة وتبالغ في الوقت ذاته في إخضاع المدن الداخلية في دائرة نفوذها ، وفشلت في إيجاد صيغة سياسية تحول هذه الزعامة إلى أداة تحقق الوحدة أو الاتحاد على صعيد اليوناني الشامل ، كما ظهر المفهوم ذاته بنفس الوضوح لدى المدن الصغيرة أو الضعيفة التي وجدت نفسها تحت سيطرة مدينة أو أخرى من المدن القوية ، فكان همها الأول هو ترقب الفرصة للثورة على هذه السيطرة والعمل الدائب على الخروج منها ، فإذا أضفنا إلى ذلك عددا من العوامل الأخرى التي تتصل بظروف خاصة لبعض المدن أو بمصالح معية لدول خارجية (مثل الإمبراطورية الفارسية) استطعنا أن ندرك بوضوح حقيقة الواقع التفتيتي الذي انتهى إليه هذا العامل الذي برز في القرن الرابع في علاقات المدن اليونانية ببعضها[1].

وفي هذا الصدد ابتدأت اسبرطة منذ انتصارها في 404 ق.م بإحكام سيطرتها على كل المدن التي كانت ضمن الإمبراطورية الأثنية من قبل إلى جانب المدن التي تحالفت معها أثناء حروبها مع أثينة ، وكانت هذه جميعا تشكل غالبية المدن اليونانية ، وقد اتصف هذه السيطرة بقدر كبير من الصرامة التي عامل بها الحكام Harmostai (حرفيا : المنسقين) الذين أرسلتهم اسبرطة إلى المدن التي خضعت لها وبخاصة في آسيا الصغرى ، فاق بكثير ما كانت هذه المدن تشكو منه أثناء حكم الأثنية ومن تم

---

[1] محمود درويش مصطفى و إبراهيم السايح ، مقدمة في تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية " تاريخ اليونان " ، المرجع السابق ، ص : 87.

أشاع السخط بين هذه المدن ، وأدى إلى قيام عدد من المصادمات العسكرية بين الاسبرطة وبين المدن اليونانية الآسيوية بوجه خاص ، لكن السيطرة التي استمرت ثلث قرن كانت في الواقع في طريق التخلخل ، فمن الناحية السياسية والمعنوية كان هناك موقف بين اسبرطة والإمبراطورية الفارسية تطور بحيث أضاع السيطرة الإسبرطية على المدن اليونانية الأسيوية ، ذلك أن الإمبراطورية الفارسية التي كانت ساعدت اسبرطة في جولتها الأخيرة في الحروب البلوبونيسية ضد أثينه كانت قد طلبت ثمنا لذلك أن تعود المدن اليونانية الآسيوية إلى السياسة الفارسية بعد هزيمة أثينه[1].

وعلى أن هذا الوضع المتسبب في الجانب السياسي من حياة دولة المدينة في القرن الرابع ق.م ، وفي هذا الصدد فإن العلاقة بين الطبقات الموسرة والطبقات المعوزة في داخل كل مدينة لم تعد تشكل حوارا أو كفاحا أو حتى صراعا يستهدف تطوير الوضع العام في مجتمعات هذه المدن توصلا إلى نظام سياسي شامل ، كما كان الحال قبل القرن الخامس وفي أثناء القرن الخامس ، إنما تحول إلى مجرد صراع عضوي في سبيل الحصول على مكاسب مؤقتة وقصيرة المدى دون ارتباط بأي مبدأ سياسي محدد ، بحيث صار الأمر أقرب ما يكون إلى التخبط الفوضوي من إلى الحوار أو التطور السياسي ، ونحن نستطيع أن نتتبع ها الوضع السياسي في أكثر من جانب ، وفي هذا الصدد يزخر القرن الرابع بأمثلة تشير جميعها إلى هذه الحقيقة ، فقد ظهر في القرن عدد غير قليل من الخطباء الغوغائيين الذين كانوا يؤثرون على المواطنين في اجتماعات مجلس الشعب خدمة لمصالح الخاصة لبعض الفئات دون نظر للمصلحة العامة في حد ذاتها[2].

---

[1] المرجع السابق ، ص : 90.

[2] حسين الشيخ ، دراسة في تاريخ الحضارات القديمة " اليونان" ، المرجع السابق ، ص : 88.

ولقد كانت البداية الدرامية المأساوية لمثل تلك التصرفات والسلوكات الدموية التي كلفت الشعب الروماني الكثير من هي قتل تيبريوس جراكوس ومطاردة أخيه من بعده ، لمحاولته تحقيق مشروع أخيه ، إذ أن تلك البداية كانت هي الشرارة الأولى لاندلاع الحروب الأهلية والصراعات السياسية الداخلية ، ومرت السنون ، ولا نعرف كيف سارت الأمور بين السناتوس ممثل الأرستقراطية القديمة وبين طبقة النبلاء الجدد ، أصحاب المناصب الإدارية العليا ، والذين كانوا قد بدءوا يتغلغلون في المجتمع الروماني ، وفي النصف الثاني من القرن الثالث ق.م ، ولا ماذا تم بعد فشل محاولات الإصلاح الاجتماعي عن طريق تحديد الملكية الزراعية على أيدي الأخوين جراكوس ، وعند منتصف الربع الأول من القرن الأول ق.م ظهر على الساحة العسكرية منافسات وتحالفات بين القادة العسكريين ، وقد وقعت أحداث أبرز تلك المنافسات التي وصلت إلى حد التصادمات الدموية ، بين الرومان أنفسهم لأول مرة في تاريخهم القديم (منذ انتصارهم المدوي على قرطاجة عام 146 ق.م وتدميرها وتسويته بالأرض عم 133 ق.م) بين عامي 88 و 86 ق.م ، فهل كانت تلك الصراعات الدموية بأيدي الرومان ، هي تصفية حسابات قديمة بين القادة العسكريين ، لم يقدروا عليها أثناء حروبهم مع العدو خارجي ، لكنهم بعد زوال الأخطار الخارجية وسيادة الرومان العالمية دون منازع على كل بلدان حوض البحر المتوسط ، سنحت الفرصة لفتح الملفات القديمة لأحزاب السياسية الرومانية ، ورأت إزاحة خصومها من طريقها بين الرومان أنفسهم ، مع مطلع القرن الأول ق.م ، كانت نتيجة طبيعية للآثار السلبية للحرب الطويلة وتضخم " الأنا العسكرية " لدى قادة الجيوش ، وطمعهم في مزيد من الثروة والجاه كحق مكتسب لانتصاراتهم وفتوحاتهم الخارجية[1].

إنه من الأرجح أن يكون السبب الرئيس وراء تلك الصراعات الدموية بين الرومان مزيجا من التفسير الأول والثاني على السواء ، فالنفس البشرية أمارة بالسوء ، ولاسيما النفس الرومانية العملية التي لا تعرف

[1] أحمد علي الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، دار النهضة العربية ، ط2 ، القاهرة – مصر ، 1991 ، ص ص : 113-115.

سوى المصلحة ، ولقد جاءت المنافسة والصدام والصراع بين سوللا ، القائد الشاب والذي يسانده السناتور ورجالات روما العظام الأرستقراطيين ، وبين القائد العجوز ماريوس الذي يسانده ثوار الشعب في كل مكان ، كما كانت إصلاحات نقيب روفوس عام 88 ق.م وبنودها هي المفجر الرئيسي لتلك الصراعات ، ولما كانت البنود قد أثارت حفيظة السناتور والطبقة الأرستقراطية ضد العمة ومطالبه ، عندئذ بدأت المؤامرات السياسية تشيد لإجهاض مطالب رفوس[1].

خارج أوقات الانتصارات ، قد أعرضنا قصدا عنها هنا ، فإن الاستجابات على سيطرة الإمبراطورية والدولة الرومانية كانت عنيفة في بعض الأحيان ، لا يعني ذلك بالضرورة أن لها صفة ما هوية معلنة ولا هدفا يقوم على المجيء مكانها ، ومن الملاحظ أن مرحلة التأقلم مع القواعد الإدارية التي طبقها أغسطس قد شهدت الأزمات الأشد خطورة ، وتقدم حالة بلاد الغال مثلا جيدا عن العثرات والاعتراضات فخلافا لما كتب أحيانا لا نجد مبررا لما يعرف بمسألة خاصة ببلاد الغال فالرعب المفترض إلي يمكن أن يكون سكان الغال قد سببوه للرومان ، لا نجد له صدى في المصادر ، فالحين إلى زمن الاستقلال لا يستقيم أمام الفحص الدقيق ، إذ لا وجود إطلاقا لوحدة غالية و لجهة مشتركة تجاه سلطة اعتبرت طغيانية ، أبدى سكان بلاد الغال ردات فعل متتالية تجاه الأحوال العسكرية على نهر الراين وتجاه الإلزامات التي اعتبرت قاسية بشأن خزينة الدولة وتجاه المسئوليات الجديدة التي أثقلت بها الانصهار الإداري كاهل النخب التي غالبا ما صارت هشة بسبب التصارع بين الأعيان ، شكلت الضريبة وأعمال التجنيد العسكري نقطتين على جانب من الحساسية ، فالإحصاءات و الكشوفات ، التي كانت أساس العمليات كانت ومنذ عهد أغسطس صعبة التحمل ، إذا قام هذا الإمبراطور برفع الضريبة السنوية المفروضة بما مقدار 40 مليون سترس على ما كان مفروضا على كاهل بلاد الغال ، تظهر أعمال الاحتيال التي قام بها الوالي الروماني ليسينوس عام 15 ق.م وتمرد الحواضر الغالية عام 21 ، ومرحلة الحرب الأهلية بين 68 و70 ، أن طرق الإدارة المالية كان لها تأثيرها الأقوى من تأثير الضرائب بالذات[2].

---

(1) المرجع السابق ، ص : 119.

(2) حسين الشيخ ، دراسة في تاريخ الحضارات القديمة " الرومان " ، المرجع السابق ، ص :99.

وإذا كان خلع " الجنرال " فينداكس عام 68 قد ارتبط بمبالغات نيرون في الشأن الضريبي ، فإن بقية الأحداث لا تفهم إلا في سياق الحرب الأهلية المؤاتية لطموحات واستفادات غير معلنة كانت العودة إلى الهدوء نسبيا لفضحها ، ومجمع ريمس في ربيع عام 70 وبعيد عن أن يكون " مجمعا وطنيا " لكن أهل بلاد الغال ، الذي كان عليه أن يختار بين روما وبين دولة غالية ،لا يمكن تفسيره إلا بفراغ السلطة بسبب تغير الأباطرة المتواترة ، والخوف من الانتقام والمعارضة بين فلافي وبين من اعتقدوا بنصر فيتاليوس وعدم تعريضهم للقصاص من جانبه ، إن ما نسوقه عن بلاد الغال ليس أكثر من مثل يعطى ، وبإمكاننا وعلى مدى القرون الثلاثة قيد الدراسة مضاعفة التحليل وتأكيد التوصيفات ، نكتفي بالإشارة إلى التمرد الإفريقي (تيسدروس) عام 238 والذي كانت غايته مواجهة الإدارة المالية التي عارضت ملاكي الأراضي ، وثورة " الشباب " المسلحة قد انطلقت بإعلان نائب قنصل المقاطعة غورديانوس مثل أغسطس ، قام الجيش المجاور في نوميديا بقمع التمرد وقتل ابن مدعي الثورة الذي اختار الانتحار ، ثم كان الإمبراطور ماكسيمينوس ضحية هذه الأحداث فترك المكان لابن غورديانوس الصغير ، نستطيع التمييز بين نمطين من المواقف ، الموقف الذب يوصل إلى حرب أهلية ، وكان له وقعه الفعلي ، والموقف الذي يحكم على المتمردين بالعزلة رغم النجاح في البداية ، وما يفتح الطريق أما قمع قاس يتحمله الخاسرون التعساء[1].

---

(1) باتريك لورو ، الإمبراطورية اليونانية ، تر : جورج كتوره ، دار الكتب الجديدة ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 2008 ، ص : 109.

المبحث الرابع : الصراع الديني

كانت ديانة اليونانيين وثنية، فقد عبدوا آلهة وأنصاف آلهة، وهي عبارة عن تشخيص لقوى الطبيعة أو الأبطال الذين قاموا بأعمال مجيدة خلدت ذكرهم ، وكان لكل مدينة أو قرية، بل لكل أسرة إلهها و أعيادها الدينية الخاصة بها ، ومع ذلك فهناك آلهة اشتهرت وأصبحت تعبد من مختلف اليونانيين، وأشهرها: "زيفيس" رب السماء والآلهة والبشر عامة، وموطن الآلهة هو جبل أولمبس المغطى بالثلج[1].

و لم يكن قائما على فكرة وجود إله واحد ولكنه كان دينا مستمدا من الأساطير ، وكانت الآلهة هي القوى الطبيعة التي تحيط ببلاد اليونان ، وجعلوا الإله قريب الشبه من بالإنسان ، ولم يكن الدين في بادئ الأمر مرتبطا بالنواحي الأخلاقية أو القيم المختلفة ، وكان اليونان يضعون القدر أو الأمور التي لا مقر منها في مكانة أعلى من الآلهة أنفسهم ، بمعنى أن الكون بأسره قائم على نظام متكامل وينظمه قانون واحد ، وهذا النظام وذلك القانون ينظم الآلهة والبشر على السواء ، ولا يمكن للآلهة أن يخرقوا هذا النظام بشكل مطلق ، بل أنهم هم أنفسهم خاضعون لهذه القوانين[2].

وكان الدين عاملاً في التفرقة بين اليونان بقدر ما كان في وحدتهم ، فقد كان من وراء عبادة آلهة الأولمبس العامة البعيدة ، وهي العبادة التي كان فيها قسط كبير من الأدب والمجاملة ، عبادة أقوى منها للآلهة وللقوى التي تدين بالطاعة لزيوس ، وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية تغذي الشرك وتجعل التوحيد مستحيلاً ، فقد كان لكل أسرة في أيام اليونان القديمة إلهها الخاص ، توقد له في البيت النار التي لا تنطفئ أبداً ، وتقرب له القربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة ، وكان هذا الاقتسام المقدس للطعام بين الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التي تعمل في البيت ، وكان المولد والزواج والموت تُخلع عليها هالة من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة ، وبهذه الطريقة كان الدين عاملاً في خلق الشعر الصوفي وفي إكساب الحوادث الرئيسية في الحياة البشرية مسحة من الوقار

---

(1) Croiset Maurice ، La Civilisation de la Gréce antique ، Petite Bibliothéque ، Payot ، Paris ، 1969 ، P: 20.

(2) محمود درويش مصطفى و إبراهيم السايح ، مقدمة في تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية " تاريخ اليونان " ، المرجع السابق ، ص : 102.

أعانت على استقرارها وثباتها ، وكذلك كان لكل جماعة بطناً كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص ، بها فكانت مدينة أثينة تعبد الإلهة أثينا ، وإلوسيس تعبد دمتر ، وساموس تعبد هيرا ، وإفسوس تعبد أرتميز ، وبوسيدونيا تعبد بوسيدون[1].

وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها، وكان الاشتراك في عبادة إلهها رمز مواطنيها وميزتهم والواجب المفروض عليهم ، وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت معها في مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما يخبئه الغيب لها ، وكان لها عليه في نظير هذا أن يحارب في صفها، وكان يبدو لأهلها أحياناً أنه قد يتجلى لهم في مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود، ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله، وكانت المدينة، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة، تحتفظ على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام في بهو المدينة، ترمز لحياة منشئتها وأبطالها القوية الخالدة، وكان مواطنوها يجتمعون في مواسم معينة ليطعموا جميعاً أما هذه النار، وكما كان أب الأسرة هو أيضاً كاهنها، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركونها كبير كهنة قي دين الدولة، وكان الإله يخلع على سلطانه وأعماله كلها ثوباً من القداسة، وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو من صياد جوال إلى مواطن مستقر[2].

وقد تطورت هذه الأفكار فيما بعد حين ارتبط الدين بالأخلاق ، وصار هناك تعريفا لمسائل مثل الطهارة التي ينبغي أن يتصف بها الإنسان حين يقدم القرابين للآلهة ، ومثل الخطايا والذنوب التي يجب على الإنسان أن يتطهر منها حتى لا يتعرض للعقاب من الآلهة ، وفي هذه المرحلة ارتبط الدين بالقيم الأخلاقية ، وبدأ في احتلال مكانا متميزا يقترب من فكرة الدين بمعناه المألوف ، كما أن كبير الآلهة لدى اليونانيين والذي يطلقون عليه اسم " زيوس " قد صار مصدرا للأقدار ، ولم يعد القضاء والقدر أمر سابقا على مكانة الآلهة[3].

---

(1) يحي لطفي عبد الوهاب ، اليونان (مقدمة في التاريخ الحضاري) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية – مصر ، 1998 ، ص : 46

(2) المرجع نفسه ، ص : 48 .

(3) محمود درويش مصطفى و إبراهيم السايح ، المرجع السابق ، ص : 103.

ويختلف الدين في بلاد اليونان عنه في البلاد الأخرى في ذلك العصر في أن الديانة في الحضارات الشرق الأدنى القديم ثم الديانات السماوية بعد ذلك كانت ترتبط بالحساب والثواب في العالم الآخر ، أما الديانة اليونانية القديمة فإنها كانت ترتبط أساسا بحياة الإنسان في الدنيا ، وكانت الآلهة أيضا كما تصورها الأساطير تشبه الإنسان في هيئتها وحياتها ، لهذا السبب كان المواطن اليوناني يتعامل مع فكرة الدين والآلهة تعاملا يخلو من الرهبة ، وإن لم يفتقر إلى الإجلال والتقدير ، وتبدوا فلسفة الدين في اختيار المواطن اليوناني لنوعية الآلهة التي يتعامل معها ويحتفل بها ، حيث نجد أن كل اليونانيين كانوا يفضلون آلهة المحاصيل أو الحرب على آلهة السماء أو الشمس والقمر والعالم السفلي ، أي أنهم على عكس الشعوب الأخرى لم يكونوا يحفلون بأمر العالم الآخر ، وإنما كانوا يتعاملون مع آلهة تتحكم في مسار حياتهم اليومية وتساعدهم على سبر أغوارهم، و قد دخلت كثيرا من المعبودات الأجنبية إلى العبادة اليونانية مثل الإله سابازيس Sabasios ، وكاتيتو Gatito ، وبنديس Bendis وأدونيس Adonis وعشتروت Astarts الإلهان الفينيقيان ، وايزيس وآمون المصريان ، وقد استاء المحافظون اليونان من دخول العبادات الأجنبية إلى المدن اليونانية وكان أكثر المنتقدين لذلك اريستوفانس الذي هاجم الإله التراقي سابازيوس والفلاسفة الذين شككوا بديانتهم ومعتقداتهم ، فقد دأب سقراط على تجاهل الآلهة ، وجمع فيثاغوراس وأفلاطون بين الفلسفة والدين وشددا على قضية خلود النفس ليحثا الناس على حسن السيرة والأخلاق ، كما سخر يوروبيدس في مسرحياته من الآلهة ، ويعود السبب في هجوم الفلاسفة على الدين ، إلى أن أساطير اليونان لم تصور الآلهة في مظهر قدسي بعيد عن المفهوم البشري ، فالإلهة عندهم صورة مكبرة عن الإنسان ، خاضع للحتمية ، عاجز عن إعطاء تعليلات مقبولة لمصير الإنسان بعد موته ، فانصرف المتشككون إلى المنطق والفلسفة في محاولة إيجاد التفسيرات والتعليلات ، حتى أذا أنكر الفكر صواب الديانة لم يترددوا في التصدي للإلهة والسخرية منها[1].

[1] بكر محمد إبراهيم ، قراءات في حضارة الإغريق القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة – مصر ، 2002 ، ص ص : 113 – 115 .

وقد تطور الدين لدى اليونانيين في عصر دولة المدينة ، حيث تعقدت وتشابكت الأمور ، ولم تعد فكرة الآلهة بمفهومها القدين صالحة للمواطن الذي يعيش في ذلك العصر ، وكان من الطبيعي أن يحدث انهيار في اعتناق هذه الديانات أو تقديم القرابين لمثل هذه الآلهة[1].

لم يكن بين أرباب الرومان وأرباب اليونان من شبه حتى في الأسماء ومع هذا اعتقاد اليونان بأن معظم الأرباب المعبودة في روما كانت أربابهم أحبوا أن يعترفوا بأنها كذلك ، وإلى ذلك العهد لم يكن لأرباب روما شكل خاص ولا تاريخ معين وهذا ما دعا إلى الارتباك في حالتها فجرى تمثيل كل رب روماني على صورة رب يوناني واخترعوا له تاريخا وحكايات ، فجعلوا زيوس اليوناني وجانون مع هيرا ومنرفا ربة الذاكرة مع بالاس ربة الحكمة وديان زوجة جانون مع أرتيمس الصيادة البديعة ومزجوا هركول رب السواد بهيرا كليس الغالب على الغيلان ، وهنا دخلت المثيولوجيا اليونانية تحت أسماء لاتينية واستحال أرباب روما إلى أرباب يونان ، وامتزجت الأرباب بعضها ببعض حتى اعتدنا أن نطلق على الأرباب اليونانية أسماء لاتينية فلا نزال نقول أرتيمس ديان وبلاس منيرفا ، بالمثيثولوجيا اليونانية اعتاد الرومان أن يصوروا أرباهم في تماثيل كما اقتبسوا أيضا بعض الاحتفالات اليونانية وكانت الحكومة الرومانية أدخلت إلى بلادها عبادة أبولون وبدأ بعض الأفراد يعبدون باخوس رب الكرامة ، ويحتفل من يعبدون باخوس بعبادته من الليل سرا و لا يطلعون أحدا على خفايا العبادة الباخوسية وأخذ المجلس يحقق فرأى المتعبدين بهذه العبادة سبعمائة شخص بين رجال ونساء واشتركوا معا في هذه الأسرار فقضى عليهم بالموت[2].

وكان الرومان مثل غيرهم من الأمم الوطنية القديمة يعبدون أشكالا من الإلهة يمثلونها على صور الأدميين ، ويشيدون لها المباني العظيمة وكانوا كلما احتلوا مملكة ضموا آلهتها إلى آلهتهم وهذا هو المعنى المفهوم عند الوثنيين من القول بالتوحيد بين الأديان ولذلك لم يكن للاختلاف الديني أدنى أثر في

---

(1) محمود درويش مصطفى و إبراهيم السايح ، المرجع السابق ، ص : 108.

(2) بكري حسن صبحي ، الإغريق والرومان والشرق الإغريقي الروماني ، درا عالم الكتب للنشر والتوزيع ، ط1 ، الرياض – المغرب الأقصى ، 1985 ، ص 411.

سياستهم وإنما كان التأثير قاصرا على الحرمان الأهالي من التساوي في الحقوق واستمر ملكهم قائما وطيدا إلى أن أطلت عليهم المسيحية الآرية التي قام يدعو إليها بطرس الحواري* ، ثم إن الرومان أخذوا أيضا يعبدون ما يعبد شعوب الشرق فقد كان ستة 220 في روما معبد للرب سيرايس المصري فأمر مجلس الشيوخ بهدمه فلم يجسر أحد الفعلة على ذلك وبقي المعبد لا يمس بسوء حتى جاء القنصل بنفسه فضرب أبوابه بالفأس ، وبعد سنين أي في سنة 304 خلال حرب هانيبال بعث الشيوخ إلى أسيا الصغرى بوفد للبحث عن المعبودة سيبيل وكانت هذه الأم الكبرى كما كانوا يدعونها مصورة على حجر أسود فأتى بهام مندوبو مجلس الشيوخ باحتفال وجعلوها في روما وقد لحق بها كهنتها وأخذوا يطوفون الشوارع على أصوات المزامير لابسين ألبسة شرقية ، ثم غصت بلاد إيطاليا بالسحرة من الكلدان ولم يكن العامة يعتقدون وحدهم بهؤلاء العرافين ، ولما هدد برابرة مدينة روما سنة 104 تقدمت عرافة من سوريا اسمها مارتا فعرضت على مجلس الشيوخ الروماني بأنها تتوسط في غلبة روما على عدوتها فطرتها مجلس الشيوخ ولكن النساء الرومانيات بعثن بها إلى العسكر فأبقاها مازيوس القائد العام لديه وما فتئ يأخذ رأيها إلى أن وضعت الحرب أوزارها ، ورأى سيللا في نومه ربة كابودسيا فعمل بنصيحتها وسار إلى إيطاليا[1].

ولم يكن يأتي إلى روما كهنة وعرافون فقط بل كان ينزل فيها فلاسفة يحتقرون الدين القديم ، ومن أشهرهم كرنياد سفير الذي كان يصرح بأفكاره في روما أمام الجمهور فيحث شبان الرومان إلى سماع أقواله حتى أراده مجلس الشيوخ على الخروج من المدينة إلا أن الفلاسفة ظلوا على بث مبادئهم في رودس وأتينة حتى أصبح من السنن المألوفة أن يبعث الرومان بفتيانهم إلى تلك المدينتين يتعلمون فيها ، وفي القرن الثالث ق.م ألف ايفهمير اليوناني كتابا ينفي فيه وجود الأرباب وأنها ليست إلا رجالا ألهم الناس

* سمعان بن يونا " نحو 10ق.م – 67 ب.م " أول رئيس على الكينسة ، دعاه المسيح وسماه كيفا أو الصخرة واقامه رئيسا للرسل ، استشهد وقيل صلب في عهد نيرون

(1) عبد العزيز الثعالبي ، مقالات في التاريخ القديم ، المرجع السابق ، ص : 41 .

حتى أن المشتري نفسه كان ملكا على كريت ، فانتشر كتابه أي انتشار ونقله الشاعر انيوس باللاتينية ، على هذا النحو أخذ أشراف روما يسخرون من أربابهم ولم يبقوا من الدين القديم إلا على مراسيمه وظواهره ، وكان أهل الطبقة العالية في المجتمع الروماني مدة زهاء قرن يعتقدون بالخرافات ولا يؤمنون بشيء[1].

وظهرت المسيحية في روما في أول عهد القياصرة وانتشرت بسرعة بين الطبقات الوضيعة ، وكانت الغاية التي يقوم لها دعاتها تخليص الأمة من جفاف المادية و الانحطاط الخلقي المتفشيين في الرومانيين وذلك بالدعوة إلى الفضيلة والعدالة ، فتوجس منها ساسة الرومانيين وخافوا عاقبتها ، واعتبروها خطرا يتهدد الدولة فقاوموا معتنقيها واضطهدوهم بصرامة وشدة فكانوا يصلبونهم ويلقونهم إلى الضواري ، فلم يزد ذلك المتدينين إلا قوة ورسوخا في الاعتقاد ، فحدثت بسبب ذلك فتن داخلية وقلاقل متتابعة في المملكة والمستعمرات كانت لها رنة عظيمة ، فإن أهاليها بعدما اعتنقوا المسيحية بدعوة من المبشرين ارتدوا عنها وعادوا إلى دينهم القديم ثم عادوا ثانية وتكرر منهم ذلك[2].

ورغم الصراع بين الجماعتين ورغم ما تذكره المصادر اللاحقة على انتصار المسيحية والتي تسود صفحة اليهود فإن علم التاريخ قد اعتاد جمعهما حين يصار إلى درس علاقاتهما المتتالية مع الرومان ، إذ إلى جانب تحذر المسيحية من أصول يهودية ، فإن النظامين الدينين يمكن جمعهما لا من منظور الشرك الخاص بالعالم القديم بل في إعلانهما التوحيد ، فاليهودية الأقدم والمرتبطة بجماعة تتركز حول مكان قدس ، وقد دخلت في الصراع وفي أكثر من مرة مع السلطة الرومانية ، وتواجد اليهود ضمن وحدتين متميزتين : في اليهودية ، وقد تجمعوا حول المعبد في القدس وقد أعيد بناؤه بعد العودة من المنفى في بابل (المعبد الثاني) ، ويهود الشتات ، الذين أخذوا بالحضارة الهللينية وكانوا في روما ، لكن في الإسكندرية

---

(1) بكري حسن صبحي ، الإغريق والرومان والشرق الإغريقي الروماني ، المرجع السابق ، ص : 415.

(2) الصفدي هشام ، تاريخ الرومان في العصور الملكية – الجمهورية - الإمبراطورية ، ج1 ، دار الفكر الحديث ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 1967 ، ص : 352.

أيضا وفي شمال شرق ليبيا ، ووسط جماعات آسيا الصغرى ، دون أن ننسى أولئك الذين يعيشون خارج حدود الإمبراطورية ، كان الحقل الديني أرضا خصبة للصراعات الحاقدة بين اليهود والرومان ، إلى حد الوصل إلى عدم تفهمها ، فالوصف الذي يقدمه تاسيتوس عن الديانة اليهودية وعن ممارساتها ورهبانياتها ، كان تعبيرا عن عدم فهمه لما يوحيه التوحيد ولا القانون الموسوي لدى النخب الرومانية ، مع التأكيد أن تاسيتوس قد تصرف بوصفه المدافع عن الدولة الرومانية ،إذ عكس ذلك أيضا الخشية الدائمة من المؤامرة أن ينقل المؤرخ دون قلق دون تحقيق ودون فحص صارم للتأكيدات التي تحور الواقع وتجعل منه واقعا كاريكاتوريا ، ليس أمرا مدهشا ولا خاصا بالديانة اليهودية، فالمعيار الأغسطس للبربرية وقد طبق على العبادات في مصر وعلى حيواناتها المتحولة آلهة قد غذى فكرة الوهم ، والمسافة السيئة بالنسبة إلى الكائنات الإلهية ، فالتوحيد قد نفى فيما ينفي ، آلهة روما ، و كان إله اليهود وحدهم الموعودين بالسيطرة الكونية[1] ، ويلوح من التحقيقات التاريخية أن الأفارقة لم يتنصروا حبا في النصرانية ولكنهم اتخذوها وسيلة يتخلصون بها من اضطهاد الرومان بديل أنهم كانوا ينتحلون المذاهب الشاذة ويتخذون ما فيها من خلافات للمذاهب الشائعة وسيلة لإحداث الارتباك والتجاهر بطلب الاستقلال وأشد من يلجأ إلى هذه الطريقة القبائل الأهلة بجبال نوميدية ، وقد عجزت الحكومة الرومانية عن صد هذا التيار حتى اضطرت سنة 330 على عهد القيصر قسطنطين إلى الاعتراف رسميا باعتبار المسيحية دينا ممارسته في البلاد وقد عد هذا اعتراف في ذلك العهد بمثابة فوز للديمقراطية على الأرستقراطية الرومانية[2].

---

[1] الصفدي هشام ، المرجع السابق ، ص : 354.

[2] عبد العزيز الثعالبي ، مقالات في التاريخ القديم ، المرجع السابق ، ص ص : 42 – 43 .

ختاما نصل إلى القول أن الحضارات مركبة معرضة للتغير والتبدل ، قائمة على منظومات فرعية ، اقتصادية / اجتماعية / دينية / ثقافية متطورة نسبيا ، وإن هذه متصلة نسبيا ، تحبس أعضاء في ظرف تناقلته الأجيال ، كما أن حضارة وثقافة لا تتجليان فقط من خلال منجزاتها المادية والروحية ، و ممارسات الأخلاقية ، الأساطير الدينية ، فالحضارة تتميز برؤساء دولها ومشرعيها ومفكريها ، بقياصرتها وآلتها ، بقدر ما تتميز بثوارها ومرتديها وثوارها وأنبيائها الدجالين ، فلا يمكن القول أن المنظومات المجتمعة الكبرى هي وحدها حضارات ، بل نحدها مرغمين على الاستنتاج بأن الحضارات الكبرى تنمو وتنتشر ، في حين أن الحضارات الصغرى تتمزق ، وتتفتت وتزول، فالحضارات عاشت وتعيش صراعا دائما، فدرس التاريخ يؤكد على أن الحضارات الأقوى المنتصرة تتغلغل غالبا في الحضارات الأضعف وتستعمرها مما يجعل هذه الأخيرة تنتقم على طريقتها ووفق أسلوبها الخاص إلى أن تفك الطوق وتكسر شوكة الاستعمار فتنقلب بذلك شر منقلب على الحضارات التي استعمرتها .

حيث يتساءل بروديل قائلا: كيف لا تتصادم وتتصارع الحضارات وهي تجد في حروبها مبرر وجودها ، فالبحر المتوسط يدين لحضاراته بحروبه وكذلك بمبادلاته المتعددة التي تمت بين تلك الحضارات (تبادل التقنيات والأفكار والمعتقدات..) رغم الصراع الذي كان بينها ، لكن في المقابل يؤمن بروديل بأنه إذا كان هذا الصراع حتميا فهو مثمر في نفس الوقت ، إذ لولاه لما تقدمت الحضارات في التاريخ كما أنه يؤمن كذلك بانبعاث الحضارات بعد موتها.

وإن العلاقات بين شعوب العالم ، تتسم بالاعتدال وبالوسطية وبالشمول وبالعمق ، والمفهوم الحوار بين الحضارات يصطبغ بصبغة التسامح والتسامي، وينطلق من عقيدة التوحيد، ومن الإيمان بوحدة الأصل الإنساني، وصراع الحضارات هو صراعٌ مفتعل في مسيرة التاريخ الإنساني، والصراع دعوة إلى الشر ومصدر له، بينما الحوار بين الحضارات دعوة إلى الخير، ومصدر للسلم والتعايش في جميع الأحوال، ويتبدى لنا الصراع نقيضاً للحوار وليس بديلا عنه، والنقيض يُتجاوز لأنه خروج عن الأصل في حياة المجتمعات الإنسانية، حتى وإن بدا الصراع فارضاً وجوده، فإن مصيره إلى زوال مهما يطل به العهد، في حين أن الحوار أصل ثابت لأنه يتفق والطبائع الإنسانية.

صفوة القول، إن الاهتمام بتدقيق المفاهيم وتقعيدها يعتبر ضروريا خاصة إذا تعلق الأمر بمفهومي التاريخ والحضارة اللذين أعطيت لهما دلالات وتعاريف مختلفة، أحيانا متضاربة وأحيانا أخرى متكاملة تبعا لتضارب أو تكامل الحقول المعرفية والمدارس المنهجية التي توظفهما في أبحاثها وخطاباتها "العلمية"، كما أن ازدهار الأبحاث التاريخية منذ "قرن التاريخ" أي القرن 19، وكذا الأبحاث الحضارية على يد علماء الأنثروبولوجيا أدى إلى وجود تقاطعات كثيرة ما بين مفهوم وموضوع التاريخ ومفهوم وموضوع الحضارة إلى حد يكاد يتم فيه التطابق بينهما (التاريخ الحضاري وحضارية التاريخ) ، فكثرت على إثر ذلك الطروحات التنظيرية والفلسفية، بعضها يقول بأحادية الحضارة وبعضها الآخر يقول بتعدديتها، بعضها يقول بحوار الحضارات وبعضها الآخر يقول بصدامها وصراعها، بعضها يقول بـ"نهاية التاريخ" وبعضها الآخر يقول بـ"عصر ما بعد التاريخ" وكل فريق من هؤلاء الفرقاء يحاول البرهنة على صحة ومصداقية أطروحته بأدلة وأمثلة تتأرجح ما بين الموضوعية العلمية والإيديولوجية المغرضة ، لكن في الأخير نقول إن منطق التاريخ ومشروعية حق الحياة لكل كائن بشري ، يفرضان الإيمان بحوار الحضارات والثقافات المختلفة ، لأن التمايز والاختلاف لا يلعبان أبدا الوحدة والتعايش ، فبجدلية الوحدة والاختلاف يتحقق العقل ويتقدم التاريخ وتزهو الحضارات .

و أن حضارات العالم القديم تبقى من أوائل الحضارات التي ظهرت على أرض البشرية ، ولها فضل كبير فيما تركت وراءها من انجازات و تحقيقات شملت على العموم جميع مجالات الحياة ، من حيث الجانب الزراعي أو الصناعي أو السياسي ومن هنا نطرح سؤال التالي ، ماذا استفدنا نحن من هذه الحضارات ؟

1- ملحق الصور



الملحق رقم 01 : ابن خلدون

https://fakkerfree.wordpress.com ، 17/03/2017 ، 10:17



الملحق رقم 02 : مالك بن نبي

http://www.linthorp.com/question-answer/12288.html ، 17/03/2017 ، 10:23



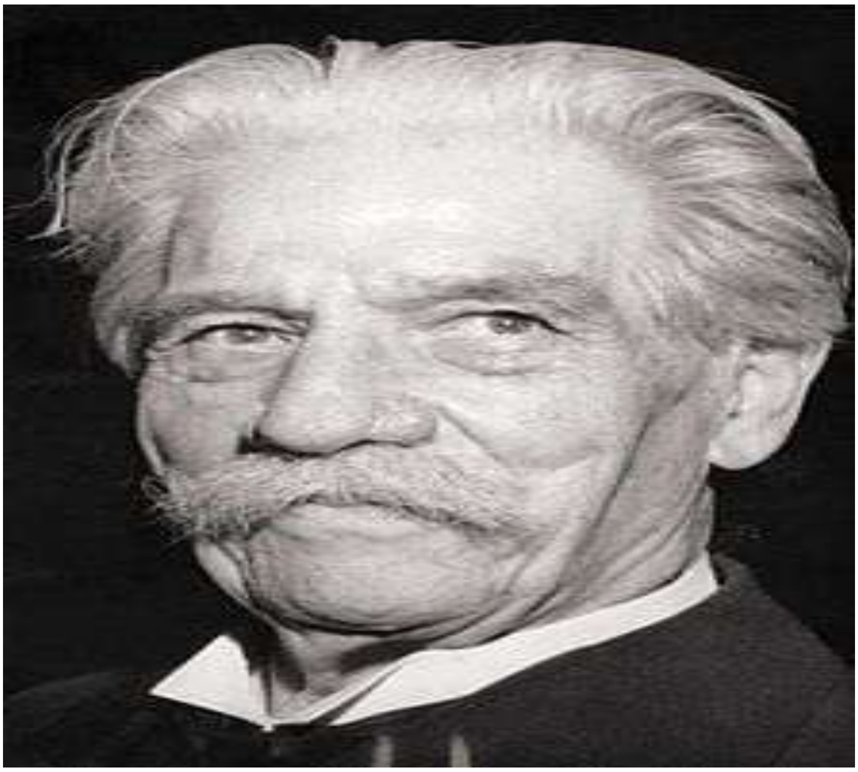
الملحق رقم 03 : فولتير

https://ar.wikipedia.org/wiki ، 17/03/2017 ، 10:37



الملحق رقم 04 : ول وايريل ديورانت

http://www.marefa.org/index.php ، 17/03/2017 ، 10:54



الملحق رقم 05 : اشفيتسر

https://ar.wikipedia.org/wiki ،   17/03/2017 ، 11:22



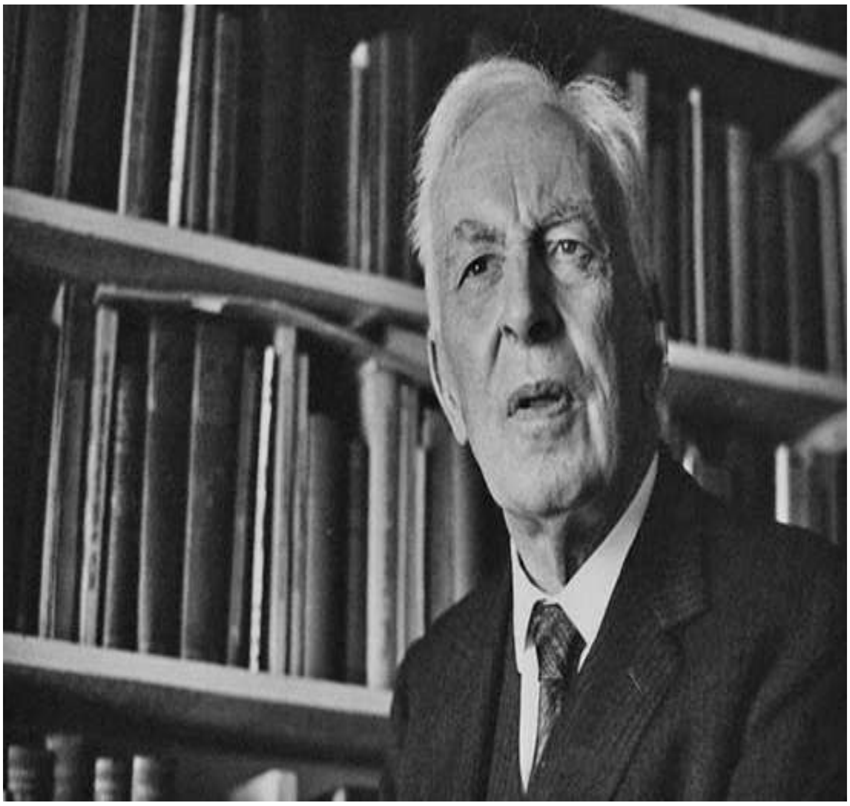
الملحق رقم 06 : شبنجلر

https://ar.wikipedia.org/wiki ، 17/03/2017 ، 11:40



الملحق رقم 07 : هنتغتون

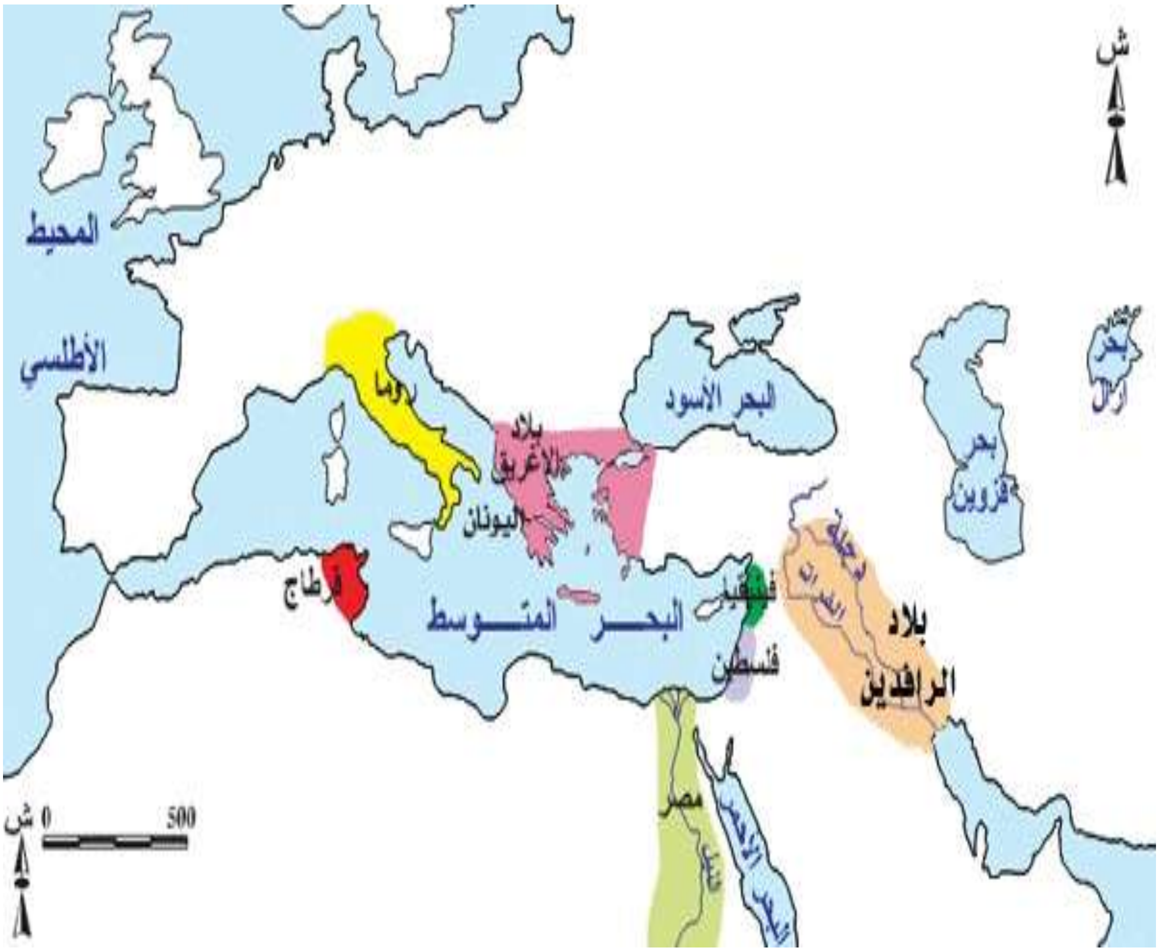
https://ar.wikipedia.org/wiki ، 17/03/2017 ، 11:46



الملحق رقم 08 : أرلوند توينبي

https://fr.wikiquote.org/wiki/Arnold_Joseph_Toynbee ، 17/03/2017 ، 11:58

2- ملحق الخرائط



خريطة توضح مراكز الحضارات القديمة

12.23 ، 2017/03/17 ، www.histoir-geo.tw.ma.com

فهرسة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

أولا : المصادر الأساسية

المصادر باللغة العربية :

- ✓ ابن منظور، لسان العرب ، حرف باب الراء ، دار صادر ، م4 ، بيروت ، ط1 ، 1955.
- ✓ سيريل ألدريد ، الحضارة المصرية (من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة) ، تر : مختار السويفي ، الدار المصرية اللبنانية ، ط3 ، القاهرة – مصر ، 1996.
- ✓ عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" ، تق : محمد الاسكندراني ، دار الكتب العربي ، بيروت – لبنان ، 2008.

ثانيا : المراجع

أ – الكتب

1 – باللغة العربية :

- ✓ إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط ، مطابع دار المعارف ، ط1، ج1 ، القاهرة – مصر ، 1973.
- ✓ اوتو ادزارد ، عصر فجر السلالات " الشرق الأدنى – الحضارات المبكرة ، تر : عامر سليمان ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل – العراق ، 1986.
- ✓ 4 – أحمد أمين سليم ، تاريخ العراق – إيران – أسيا الصغرى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية – مصر ، 2000 .
- ✓ أحمد الفرجاوي ، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة ، المعهد الوطني للتراث (المجمع التونسي للعلوم والآداب بيت الحكمة) ، تونس ، 1993.
- ✓ أحمد محمود صبحي وصفاء عبد السلام جعفر ، في فلسفة الحضارة (اليونانية – الإسلامية – الغربية) ، دار النهضة العربية ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 1999.

البيبلوغرافيا :

- ✓ أحمد محمد انديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاثة ، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ط1 ، بنغازي – ليبيا ، 1993.
- ✓ أحمد علي الناصري ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، دار النهضة العربية ، ط2 ، القاهرة – مصر ، 1991.
- ✓ أحمد صفر ، مدينة مغرب العربي في التاريخ ، ج1 ، درا النشر بوسلامة ، تونس ، 1959.
- ✓ أحمد توفيق المدني ، قرطاجنة في أربعة عصور " من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي " ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986.
- ✓ ايج .أي . ايل ، قصة الحضارة في سومر وبابل ، تر : عطا بكري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد – العراق ، 1971.
- ✓ ألبرت اشفيتسر ، في فلسفة الحضارة ، تر : عبد الرحمان بدوي ، دار الأندلس ، ط2 ، بيروت – لبنان ، 1980.
- ✓ الصفدي هشام ، تاريخ الرومان في العصور الملكية – الجمهورية – الإمبراطورية ، ج1 ، دار الفكر الحديث ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 1967.
- ✓ الراغب الأصفهاني ، معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تر: نديم مرعشلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، 1972.
- ✓ الشادلي بورونية ، محمد الطاهر ، قرطاج البونية " تاريخ الحضارة " ، مركز النشر الجامعي ، الاسكندرية – مصر ، 1999 .
- ✓ أندري لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، تع : خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، ط2 ، م1 ، بيروت ، 2001.
- ✓ أسوالد شبنجلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ج1 ، تر : أحمد الشيباني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، 1964.
- ✓ أسوالد شبنجلر ، تدهور الحضارة الغربية ، ج2 ، تر : أحمد الشيباني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، 1964.

البيبلوغرافيا :

- ✓ أسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، دار النفائس ، بيروت – لبنان ، 1986.
- ✓ باتريك لورو ، الإمبراطورية اليونانية ، تر : جورج كتوره ، دار الكتب الجديدة ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 2008.
- ✓ بكري حسن صبحي ، الإغريق والرومان والشرق الإغريقي الروماني ، درا عالم الكتب للنشر والتوزيع ، ط1 ، الرياض – المغرب الأقصى ، 1985.
- ✓ بكر محمد إبراهيم ، قراءات في حضارة الإغريق القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة – مصر ، 2002.
- ✓ جاردنز آلن ، مصر الفراعنة ، تر : نجيب مخائيل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط3 ، القاهرة – مصر ، 1987.
- ✓ جيهان دايتريج ، تاريخ إفريقيا العام ، ج 1 .، اليونيسكو ، باريس ، 1985.
- ✓ جيمس هنري برستد ، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، تر : حسين كمال ، مكتبة مدبولي ، ط2 ، القاهرة – مصر ، 1997.
- ✓ جميل نخلة المدور ، تاريخ بابل و آشور ، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ، القاهرة – مصر ، 2012.
- ✓ جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، تص : إبراهيم مدكور، مجمع اللغة العربية ، مصر ، 1983.
- ✓ ديلايورت ، بلاد ما بين النهرين ، تر : محرم كمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1997.
- ✓ ول ديورانت ، قصة الحضارة – نشأة الحضارة في الشرق الأدنى ، تر : زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، م1 ، ط3 ، 1965.
- ✓ ول وايريل ديورانت ، قصة الحضارة – نشأة الحضارة – تر : زكي نجيب محمود ، تق : محي الدين صابر ، ج1 ، دار الجيل للطابعة والنشر ، بيروت – لبنان ، 1981.
- ✓ زياد عويد سويدان المحمداوي ، التطورات السياسية في بلاد الرافدين " العهد الأشوري الوسيط " ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 2003.

البيبلوغرافيا :

- ✓ زكي الميلاد ، تعارق الحضارات ، دار الفكر،ط1 ، دمشق – سوريا ، 2006.
- ✓ حلمي محروس أسماعيل ، الشرق العربي القديم وحضارته " بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة " ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية – مصر ، 1997.
- ✓ حسين الشيخ ، دراسة في تاريخ الحضارات القديمة " اليونان " ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية – مصر .
- ✓ حسين نعمة ، موسوعة ميثولوجيا وأساطيل الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة ، دار الفكر اللبناني ، بيروت – لبنان ، 1994.
- ✓ حسين سليم ، مصر القديمة (عصر منبتاح ورعمسيس الثالث ولمحة في تاريخ لوبية) ، ج7 ، القاهرة – مصر ، 1950.
- ✓ حسن أحمد سليم ، موسوعة تاريخ مصر ، ج1 ، 1972.
- ✓ حسن محمد الكحلاني ، فلسفة التقدم – دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ – ، مكتبة مديولي ، ط1 ، القاهرة – مصر ، 2003.
- ✓ طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ، دار الحرية ، بغداد – العراق ، 1976.
- ✓ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج1 ، دار الوراق ، لندن ، 2009.
- ✓ يحي لطفي عبد الوهاب ، اليونان (مقدمة في التاريخ الحضاري) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية – مصر ، 1998.
- ✓ ليو اوبنهايم ، بلاد مابين النهرين ، تر : سعدي فيض عبد الرزاق ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، ط2 ، بغداد – العراق.
- ✓ مادلين هورس ميادان ، تاريخ قرطاج ، تر : ابراهيم بالش ، منشورات عويدات ، ط1 ، بيروت – باريس ، 1981.
- ✓ مالك بن نبي ، أفقي جزائرية ، مكتبة عمار ، ط1 ، القاهرة – مصر ، 1971
- ✓ مالك بن نبي ، ميلاد المجتمع ، دار الفكر ، دمشق – سوريا ، 1997
- ✓ مالك بن نبي ، شروط النهضة ، تر : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، ط4 ، سوريا ، 1987.

البيبلوغرافيا :

- ✓ مجدي صادق ، التاريخ الحقيقي لمصر القديمة ، دار جامعية ، ط1 ن الإسكندرية – مصر ، 2002.
- ✓ مهران محمد بيومي ، دراسات في تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم ، دار المعرفة الجماعية ، الإسكندرية – مصر ، 2000.
- ✓ مونتسيكو ، تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط ، تر : عبد الله العروي ،المركز الثقافي العربي ، ط1 ، الدار البيضاء – المغرب ، 2011.
- ✓ موسى لحرش ، إستراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي ، مختبر التربية و الانحراف و الجريمة في المجتمع ، الجزائر ، 2006.
- ✓ محمد ابو المحاسن عصفور ، المدن الفينيقية ، درا النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، 1981.
- ✓ محمد الهادي حارش ، التاريخ المغاربي القديم (السياسي و الحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ، 1992.
- ✓ محمد العربي عزوز ، زمن هنتغتون ؟ صدام الحضارات ونهاية التاريخ ، دار النهضة العربية ، ط1 ، القاهرة – مصر ، 2009.
- ✓ محمد حسن نصر ، مفهوم الحضارة عند ابن خلدون وهيجل – دراسة مقارنة –، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع ،ط1 ، طرابلس – ليبيا ، 1993.
- ✓ محمد حسن خليفة ، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى وحضارته ، دار قباء ، القاهرة – مصر ، 1998.
- ✓ محمد محي الدين المشرفي ، إفريقيا الشمالية في العصر القديم ، دار الكتب العربية ، ط4 ، بيروت – لبنان .
- ✓ محمد نصر عارف ، الحضارة–الثقافة–المدنية"دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم"، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، عمان،ط1994،2.
- ✓ محمد عبد السلام الجفائري ، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي ، الدار العربية للكتاب ، ط1 ، طرابلس ، 1984.
- ✓ محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، مؤسسة توالت الثقافية ، 2010.

البيبلوغرافيا :

- ✓ محمد خاتمي ، حوار الحضارات ، ثر: سرمد الطائي ، دار الفكر ، ط1 ، دمشق – سوريا ، 2002.
- ✓ محمود إبراهيم السعدني ، حضارة الرومان " منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي " ، عين للدراسات والبحوث الجامعية ، ط1 ، 1998.
- ✓ محمود درويش مصطفى و إبراهيم السايح ، مقدمة في تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية " تاريخ اليونان " ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، مصر ، 1999.
- ✓ مصطفى النشار ، في فلسفة الحضارة جدل الأنا والآخر نحو بناء حضارة إنسانية واحدة ، دار فياء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1،القاهرة – مصر ، 2007.
- ✓ سبتينو موسكاتي ،الحضارات السامية القديمة ، تر : يعقوب بكر ، دار الكتاب العربي للطبعة والنشر ، القاهرة – مصر.
- ✓ سليمان الخطيب ، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ، ط1 ، القاهرة – مصر ، 1986.
- ✓ عباس الحديثي ، نظريات السيطرة الإستراتيجية وصراع الحضارات ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، ط1 ، الأردن ، 2004.
- ✓ عبد الرحمن بدوي ، شبنجلر ، دار القلم ، بيروت – لبنان.
- ✓ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، تاريج الجزائر العام ، ج1 ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2010.
- ✓ عبد الرحمان علي الحجي ، أضواء على الحضارة والتراث ، شركة الشهاب للنشر والتوزيع ، الجزائر.
- ✓ عبد العزيز الثعالبي ، مقالات في التاريخ القديم ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 1986.
- ✓ عبد العزيز صالح ، الأسرة المصرية في عصورها القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة – مصر ، 1988.
- ✓ عبد العزيز صالح ، حاضر مصر وأثرها ، ج1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة – مصر ، 1992.

البيبلوغرافيا :

- ✓ عبد القادر جغلول ، الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، ط4 ، بيروت – لبنان ، 1987.
- ✓ عبد الغني مغربي ، الفكر السوسيولوجي عند ابن خلدون ، تع : محمد الشريف بن دالي حسين ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2006.
- ✓ علي عكاشة وآخرون ، اليونان والرومان ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1991.
- ✓ عمار الطالبي ، دراسات في الفلسفة و في الفكر الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 2005.
- ✓ عصفور محمد أبو المحاسن ، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم (من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر) ، دار النهضة العربية ، بيروت – لبنان.
- ✓ عثمان الكعاك ، البربر ، تامغناست لطبع والنشر والتوزيع .
- ✓ فاضل عبد الواحد علي وآخرون ، جوانب من حضارة العراق " العراق في التاريخ " دار الحرية ، بغداد – العراق ، 1983.
- ✓ فاضل عبد الواحد علي ، من سومر إلى التوراة ، ط2 ، سيا للنشر والتوزيع ، القاهرة – مصر ، 1996.
- ✓ فاضل عبد الواحد علي ، عامر سيلمان ، تاريخ العراق القديم ، ج2 ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد – العراق ، 1980.
- ✓ ف. دياكوف ، س . كوفاليف ، الحضارات القديمة ، تر : نسيم واكيم اليازجي ، ج1 ، منشورات دار علاء الدين ، ط1 ، دمشق – سوريا ، 2000.
- ✓ ف . فون .زودن ، مدخل إلى حضارات الشرق القديم ، تر : فاروق إسماعيل ، درا الثقافة للنشر والتوزيع ، دمشق – سوريا ، 2003.
- ✓ صامويل هنتغتون ، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي ، تر : مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود خلف ، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع ، ط1 ، مصراتة ، 1999.
- ✓ قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة " دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها في الواقع الحضاري" ، دار العلم للملايين ، ط4 ، بيروت –لبنان ، 1981.

البيبلوغرافيا :

- ✓ رلف شون ، الأصول الحضارية للشخصية عبد الحميد اللبان ، درا اليقظة العربية ، بيروت – لبنان ، 1964.
- ✓ رشيد الناضوري ، تاريخ المغرب الكبير ج 1 .(العصور القديمة .أسسها التاريخية الحضارية و السياسية) ، دار النهضة العربية ، بيروت ،1981.
- ✓ رشيد عبد الوهاب حميد ، حضارة وادي الرافدين – ميزوبوتاميا – دار الثقافة ، دمشق – سوريا ، 2004.
- ✓ شارل سنيبوس ، تاريخ الحضارات العالم ، تر : محمد كرد علي ، مطبعة الظاهر بالقاهرة ، القاهرة – مصر.
- ✓ تقي الدين الدباغ ، العراق في التاريخ " العراق في عصور ما قبل التاريخ "، بغداد – العراق ، 1883.
- ✓ غابرييل كامب ، البربر ذاكرة وهوية ، تر : عبد الرحيم حزل ، إفريقيا الشرق للطبع والنشر ، الدار البيضاء – المغرب ، 2014.

2 – باللغة الأجنبية :

- B.Taylor،Dictionry Of Onthropology ،1988.
- Croiset Maurice ، La Civilisation de la Gréce antique ، Petite Bibliothéque ، Payot ، Paris ، 1969.
- Malek Ben Nabi ، Le Probléme Des Idées Dans Le Monde Musulman ، édition El Byynate ، Alger ، 1999 .
- Myriam Philibert ، Dictionnaire Des Mythologies، Brobar a Taupin، France، 2002 .
- Toynbee Arnold , Traduit De L'anglais Par Jacques Potin et Autres ,Paris – Bruxelles ,Séquoia ,1975 .

ب – المقالات :

- جولز هندي ، مصطلح البدائية عند كبرهايغر أشالي مونتناغ البدائية ، تر : محمد عصفور ، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، طلع المعرفة ، العدد 53 ، مايو 1986
- حسين مؤنس ، الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيمها وتطورها ، سلسلة علم المعرفة ، الكويت ، العدد1 ، يناير 1978
- محمد الطاهر الجيراري ، " شيشنق وتكوين الأسرة الثانية والعشرين في مصر القديمة " ، مجلة البحوث التاريخية ، ج2 ، مركز الجاهد الليبي ، 1981.
- محمود تيمور، ألفاظ الحضارة 1981، مجلة اللبنان العربي ، 1982، مكتبة التنسيق والتعريب، م9 ، ج1
- سامي سعيد الأحمد ، العراق في كتابات اليونان والرومان ، مجلة سومر ، ج1-2 ، م 26 ، بغداد – العراق ، 1970
- سلامة موسى ، الثقافة والحضارة ، مجلة الهلال ، القاهرة – مصر ، ديسمبر 1967
- عبد المنعم شوقي ، مجتمع المدنية ، عرض الكتاب الفكري العربي ، العدد 30 ، ديسمبر 1983
- علوي طه الصافي ، تعريف الثقافة ومفهومها ، مجلة فيصل ، العدد 193 ، ديسمبر 1988
- عطية فتحي الويشي ، الحضارة إشكالية المصطلح ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، العدد16 ، 1990.

ج – المواقع الإلكترونية :

- https://fakkerfree.wordpress.com
- http://www.linthorp.com/question-answer/12288.html
- https://ar.wikipedia.org/wiki

البيبلوغرافيا :

- http://www.marefa.org/index.php
- https://fr.wikiquote.org/wiki/Arnold_Joseph_Toynbee
- www.histoir-geo.tw.ma.com

1 – فهرس الآلهة

-أ-

2 – فهرس الأعلام (الأشخاص)

-أ-

فهرس المحتوى

فهرس المحتوى